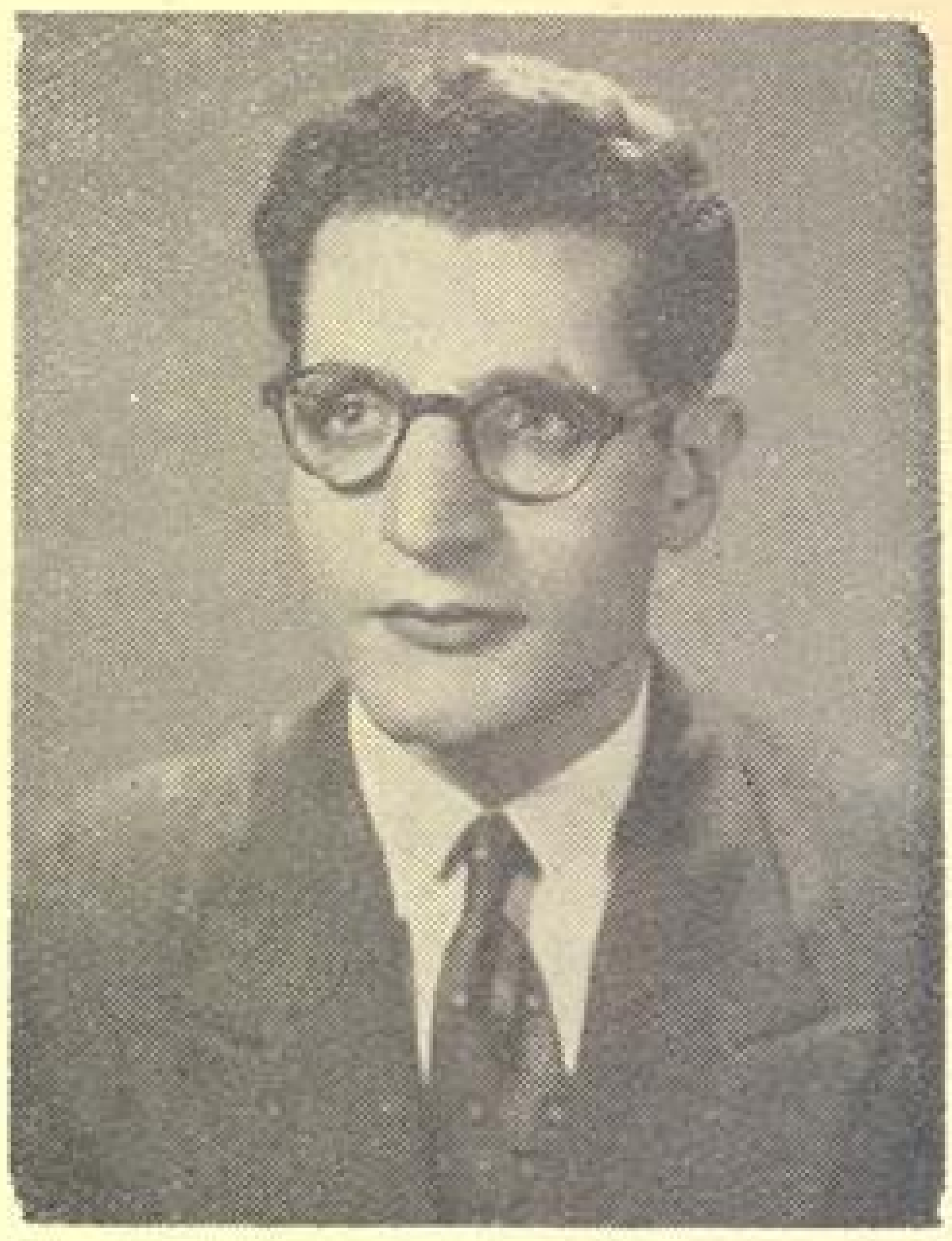


محمد رجب البيومي

كيف ينظمون الشعر

اهدي هذا المقال الى صديقي المربي الاستاذ عبدالجليل صديق فايد بالمنصورة

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

كانت الحدود مرتفعة ، في أوائل هذا القرن بين النظم والشعر ، فكل من درس العروض أهل لنظم القصائد . وصياغة المعلقات ، فاذا أضاف الى ذلك الماما بالاستعارة والتشبيه في علم البيان وبالطباق والجناس والثورية في علم البديع ، فهو السابق المجلي في القول ، وله ان يعلو المنابر العالية ليسمع الناس أغاريده الفاتنات ! وقد كان طالب الازهر في الجيل الماضي يرى لزاما عليه ان يمدح استاذه عقب انتهاء المقرر المدروس بقصيدة مناسبة ! او هي كصلاة الجنازة فرض كفائي يقوم فيه البعض عن الكل ، وليس لاحد من الطلاب ان يحجم عن المدحة الشعرية ، لانه قد استوفى شروطها المقررة اذ درس العروض والقافية ، والم بالمصطلحات البلاغية في علمي البيان والبديع ! فلماذا لا يملك العصي من القريض !

ولكن ازدهار الثقافة ، قد افهم الكثيرين من هؤلاء وغير هؤلاء ، ان الشعر شيء والنظم شيء آخر ، فصرف العقلاء منهم همهم عن الشعر ، واتجهوا الى ما يسهل الشأن فيه من التأليف والخطابة ! وبقي الآخرون في ضلالهم الموهوم ، يعدون انفسهم شعراء مفاليق ويتكلفون النظم فلا يحسنون !

واذا كان لكل فن آلته ، فلا بد ان يكون لدى هؤلاء آلتهم الفنية ، ينسجون على منوالها اغرب ما يقال واعجبه! وقد كفانا الزجال العبقري المغفور له الاستاذ محمود بيرم التونسي وصف المعاناة التي يمر بها هؤلاء النوابغ في مجال الابداع ، حين هاله ان يقف مفهوم الشعر لديهم عند هذا الحيز المنكر ، فرأى ان يلتقط صورة واقعية لناظم متكلف، ليري القراء كيف تنثال المعاني ، وتتدفق القوافي عليه وفق نهج مرسوم لا يتعداه ، وذلك حين كتب مقاله البديع «فن الشعر» بمجلة الفنون في ١٥ يناير سنة ١٩٢٨ ، وقد نقلته مجلة الادب المصرية في عددها الخاص ببيرم ، فكان مما قال :

« شعراء المدرسة القديمة يجمع أحدهم قوافي القصيدة التي تعجبه فتكون مثلا «فطس وعكس ، ورفس، ونفس ، فاذا حصل على خمسين كلمة من هذا الوزن شرع في التفكير في موضوع القصيدة ، وفي الغالب لا يعرف كيف يجعل - يريد يختار - موضوع قصيدته ، فيخرج الورقة من جيبه أينما حل في القطار وفي المرحاض، وعلى المائدة ، حتى يهتدي الى الفكرة التي توافقها الكلمات التي معه فان كان من العصريين جعل عنوان القصيدة «دموع السحاب» او صفعات النسيم ، وان كان من المحافظين صرفها الى تهنئة صديق ترقى من رتبة وكيل الى قاض «مثلا» وقد قلنا ان معه قوافي سينيه ، فهو يتأمل المعنى الذي يصلح لكلمة نفس فيتبادر الى ذهنه الشعر في جملة «قتلت نفسي» وهنا مناسبة طيبة ليضع في البيت كلمة لولا وهي من ملامح الشعر العربي وخواصه فيكتب البيت كتابة ابتدائية هكذا :

ولولا ... لقتلت نفسي

ثم يطوي الورقة ويضعها في جيبه ، ويتفرغ للتفكير، فترى بصره ذاهلا بين السماء والارض وهو يفتش عن الكلام الذي يملأ الفراغ بين لو وما بعدها فيخطر له جمل عديدة منها :

ولولا انني أجد التسلي ... بانك واعدي لقتلت نفسي

أو قوله :

ولولا أن لي نفسا أحبت ... فريد زمانه لقتلت نفسي

وقد يعرض البيت الذي يختاره على احد الازهريين فيبدي له وجه الركاكة النحوية في «ولولا وجوابها» فيحذف البيت كله ويبقي كلمة «نفسي» ثم يستريح من النظم اياما، واذا بالجرائد تنشر نعي احد الوجهاء فيحول القصيدة الى رثاء له ، بعد ان يكون غير فيها وبدل ، ويصير البيت الذي فيه كلمة نفسي هكذا :

ليتها تقبل الفداء المنايا ... عن جليل فافتديك بنفسي » .

هذا قليل مما كتبه بيرم في مجال التندر على النظم والنظامين ! فقد دبج من المقالات ، وقلد من القصائد ، وحاكى من الشعراء ما دل به على ذوق سليم وفن عال وثقافة محيطة ! ولعلنا نعرض بعد حين الى الجانب النقدي

من أدب هذا العبقري الفنان ! وان كنا نلاحظ انه يسلك سبيل المبالغة في تصوير ما ينقد ! وهو سبيل الكاريكاتوريين جميعا ، لا سبيله وحده ، اذ انهم يجسمون من المشاهد ما ينطق بمدلوله النقدي الخاص ! لذلك كانت المبالغة في تهكم بيرم احدى مقومات النقد ، ووسيلة الاقناع والامتاع معا !

وقد كتب الرجل مقاله سنة ١٩٢٨ ، وكنا نظن ان مرور نحو اربعين عاما على مقاله مما يجعله حكاية تاريخية تسجل في دراسة التطور الادبي المعاصر ، ولكن الواقع الادبي يدل على ان بعض من يتعاطون الشعر في يومنا هذا لا يزالون يخلطون بين النظم والشعر ، اذ لا يتطرق الى اذهانهم ان يكون الشعر وليد تجربة عميقة او تكون القصيدة ذات وحدة عضوية متماسكة ! وما زالت الجزالة والرصانة وقوة السبك ومتانة القافية هي الهدف الاسمى عندهم ! وكم سمعنا في ندوات القاهرة من مضحك الشعر ومبكيه مما لا يفرق فيه القائل بين قصيدة تقال او خطبة ترتجل ،وكنا نعزي انفسنا بأن حضرات الناظمين لا يزالون شداة مبتدئين ، ولكني بعد كثير من الاستماع السقيم ، هالني ان اجد بعض الفطاحل من الكبراء ، لا يزالون كما وصفهم بيرم التونسي يتكلفون ما لا يحسنون واذا كان الزجال العبقري قد روح عن نفسه بتسجيل نقده التهكمي ، فأنا أحذو حذوه حين أسرد ما وقع الى سمعي منذ أيام ، وهو في جملته نافع مفيد .

أقيمت منذ شهور حفلة تكريمية لكبير مسؤول ، احيل الى المعاش بوزارة التربية والتعليم ودعي الى شهودها مئات المدرسين ومن فوقهم من مختلف محافظات الجمهورية ، وقدمت عشرات القصائد لتقال في حفل التكريم فاختير منها عشر تضاف الى خطب نثرية تشارك في التقدير ! وكان الحفل غاصا بشاهديه . بهيجا بمكانه وزمانه ، ولكن القصائد العشر كادت تكون ــ مع اختيارها الدقيق ــ نسخا متشابهة ، تصلح ان تعد لمن تقدم او تأخر ممن يشغلون وظيفة هذا الكبير ! وهي لا تختلف الا في البحر والقافية ، وتركيب الجمل ، وتنسيق العبارات ، اما المعاني والاخيلة فمتقاربة تقاربا يدل على العقم والامحال اكثر مما يدل على تقارب الثقافة واتحاد المصدر ووحدة العواطف والاحاسيس وقد يعذر الناقد هؤلاء اذا عرف انهم مدرسون او مفتشون يصنعون الشعر دون ان تسيطر عليهم ملكته ! ولكنهم والكارثة هنا ــ لا يعتقدون ذلك في مواهبهم ، فكلهم لدى نفسه شاعر عربي النسج قوي الجزالة متين القافية رائع السبك ، وليس وراء ذلك مدى يبلغه شاعر مجيد ! وقد يقف أحدهم معك ليقول ان بيته الثالث او الرابع مثلا احسن من قول المتنبي او البحتري او ابي تمام في معناه ويفاجئك بأقوال السابقين مما لا نستطيع معه السكوت دون غيظ مكظوم ! ثم يستدرجك بما وسعه الجهد الى الحكم على قصيدته بالروعة والابداع، فان تلكأت قليلا فانت جاهل ان كنت من الخاملين او حاقد ان كنت من النابهين !

تقدم الى منصة القول مفتش كبير كان يأخذ مكانه بجانبي قبل ان يأتيه الدور ، فاستقبل قبل الانشادبعاصفة من التصفيق رجت المكان رجا ، وقد اتضح ان حضرات المصفقين مجموعة كبيرة ممن اسعدهم الحظ بمزاولته التفتيش عليهم في المدارس ، وما كاد يلقي البيت الاول حتى علت صيحات الاستحسان والاستعادة ثم تابع القول في طرب بهيج يبعثه التصفيق المتواصل ، وصيحات الاستعادة المتكررة ، حتى اذا انتهى من قصيدته ورجع الى مكانه بجانبي توافد عليه المعجبون ، يؤكدون احتفاءهم البالغ ، ويكررون ثناءهم الحفيل ، حتى خيل للشاعر أنه ملك ناصية القول ، وانه ــ وحده ــ حلق بسامعيه الى أفق لا ينال ، فبرقت أساريره ، وهز من عطفه والتفت الي يسأل في سعادة :

ــ ولماذا لم تسمعنا شيئا يا أستاذ رجب !

فأجبت في اقتضاب : لقد تركت الشعر يا سيدي !

فقال في انكار ولكنك اخذت جائزة المجمع اللغوي منذ عامين في الشعر ، فكيف تتركه اذن ؟

فأردت التخلص بما يسعف من الرد ، فقلت ،حاولت أن أصنع شيئا فما استطعت !

فاعتدل الرجل في مجلسه ، وقد فرغ المنشدون والقائلون ، وتحلقت كل جماعة حول مائدة ، ثم وجه الي القول على مسمع من بعض الرفاق ، فقال : لا فض فوه . لقد ذكرت ان الشعر قد امتنع عليك ، أما انا فسأدلك على طريقتي في النظم لعلها تفيدك وتهديك !

قال ذلك بصوت مرتفع ، فرأيت الزملاء من الحلقات الاخر يسحبون كراسيهم الى جماعتنا وكأنهم يحرصون على اغتنام فرصة خطيرة ! والشاعر الكبير يتهلل فرحا ، ويوسع لكل قادم ويرسل النظرات ذات اليمين وذات الشمال ، حتى اذا اكتمل العقد بدأ نصائحه الغالية فقال :

لقد كنت صديقا لاستاذنا الكبير علي الجارم رحمه الله ، صاحبته في كثير من روحاته وغدواته ، واخذت منه طريقة النظم .

ثم اتجه بحديثه الي لينبهني من اطراقة حاولت ان اخفي بها ما يشي به وجهي من الملامح ، فتصنعت الاهتمام ، ورفعت راسي اليه لاسمعه يقول :

« كان الجارم بك رحمه الله أستاذ الشعر في مصر ، وكان لا ينظم قصيدة قبل أن يمد يده الى ديوان المتنبي او ديوان البحتري وقليلا ما كان يقرأ في ديوان ابي تمام ، فيعمد الى قصيدة بعينها فيقرؤها فاحصا واذ ذاك يتصيد لطائف المعاني ، وتنطبع قوافي القصيدة في ذهنه ،ويردد أبياتها بصوت موسيقي ساحر ! ثم يقوم بنزهة خلوية الى بعض الحدائق قبيل العصر ، ويظل متنقلا بين الاغصان والورود حتى يدلف المساء فيرجع الى بيته ، واذ ذاك

يخلع حلته الرسمية ويستعد لحمام دافىء ، ثم يخرج متدثرا ، وقد سكتت اصوات المنزل وآوى الطفل الى فراشه في صمت والطالب الى حجرته في حذر والام الى مضجعها في احتراس ! واذ ذاك يلج الشاعر الكبير حجرة مكتبه وقد اعد عليها وابور القهوة وأقداحها ، ولفائف التبغ أطباقا فوق أطباق ، وفي هدأة الليل الساكن يرتفع لهب الموقد في خفوت ، وتنعقد سحائب السجاير في رفق ، ويأخذ الرجل في نظم القصيدة متنقلا من بيت شعر ، الى فنجان قهوة الى لفافة تبغ ! حتى اذا اذن الفجر فرغ الشاعر الملهم من معلقته ، وانكفأ الى مضجعه وقد أتحف العربية بجارمية ممتازة تظل حديث الناس حتى يتحفهم بغيرها عن قريب .

ثم سكت القائل الكبير ! وقد اخذ يتطلع في الوجوه فابتدره احدنا بقوله: هذا هو الجارم! فماذا صنعت انت؟ فأسرع صاحبنا يقول في ابتسامة : وهل أصنع غير ما سنه أستاذنا الجارم، وانا أسكن بحمد الله على شاطىء النيل وبين حدائق الجيزة ، فلا أصل الى منزلي حتى اشافه الاغصان والمياه والازاهير ! وهو أمر كفاني التجوال بين الرياض ! وما كدت ادعى لحفلة التكريم حتى مددت يدي الى الشوقيات ، وفتحت الجزء الثاني مصادفة ، فوقعت على قصيدة شوقي الرائعة في وصف الربيع :

آذار أقبل قم بنا يا صاح حي الربيع حديقة الارواح

فأعجبني البحر وطربت للقافية ، وأخذت أقرأ نشوان متلذذا حتى كررتها عشر مرات (اي والله قال الرجل ذلك) ! ثم طلبت الحمام الدافىء ، فشعرت براحة ونشاط عقب الاستحمام ، واتجهت الى مكتبي ، وقد بسطت صحيفة من الورق جمعت بها قافيات الشوقية مثل « ارواح ، صاح ، أدواح ، متاح ، أفراح ، الفتاح رواح ، اتراح شراح» وهكذا، وبذلك كسبت الجولة الاولى ثم تهيأت للنظم فكانت القافية سلمي السريع الى المعنى ، وكانت لفائف التبغ تؤنس وحدتي وتزيل عناء القريحة مضافا اليها اقداح القهوة ! وحين كنت المس بعض الفتور في ذهني كنت أستعيد الشوقية فتفتق المعاني وتتدفق الالفاظ ، وما زلت بين محو واثبات ، ومراجعة ومعاودة حتى تم لي في الليلة الاولى عشرون بيتا فحمدت الله ! وذهبت في الصباح الى التفتيش وانا أفكر في القصيدة، وأتذكر مما أحفظ قصائد أخرى تتفق في الوزن والروي وكنت امنع نفسي عن التفكير فلا أستطيع ، لان الشعر اذا تسلط لا يمنعه احد ولو كانت له مقدرة الجبابرة العمالقة (هكذا) حتى اذا انتهى اليوم ودلف المساء أخذت الحمام الدافىء واستأنفت النظم على نمط الامس ! ففتح الله علي ، ونظمت في الليلة الثانية ثلاثين بيتا أضيفت الى العشرين، فاكتملت خمسين، ثم أخذت اوالي التنقيح والتحوير لفظا مكان لفظ وتشبيها وراء تشبيه – مدى ثلاثة ايام – حتى صقلت القصيدة صقلا حاز – بفضل الله – اعجاب حضراتكم ، فتابعتم التصفيق !

استمع أكثر الحاضرين الى ما قبل استماع المعجب المرتاح ! ووقع في وهم بعضهم ان اصطحاب الجارم رحمه الله للشاعر المطبوع كان وحده ملهم الوحي وباعث الابداع، فأخذ يتحسر على حياته أن خلت من صحبة شاعر كبير كالجارم اذ لو تم له ذلك ، لكان اليوم من أرباب المعلقات، ولظفر الليلة من التصفيق والاعجاب بما ظفر به المفتش الكبير ! وتأكد هذا المعنى لدى الكثيرين حين قال الرجل في ابتسام متوجها الي بالخطاب ! اسمعت يا رجب كيف لقطت الصنعة من الجارم بك ؟ فعاجله مستمع خبيث بقوله ومين يا سعادة البيه زيك مين ؟

انتهى الحفل ، وانصرفت عنه الى غيره من شؤون الحياة ، ولكن صدى الحديث كان يجلجل في نفسي وكنت اسأل في حيرة اكان الجارم رحمه الله يفعل ذلك حقيقة او ان صاحبه قد روى عنه غير الواقع ، الا اني أجزم بأن ثلاثة ارباع شعر الجارم قد نظم في المناسبات العامة ، وأعد للالقاء في الحفلات ! وكان الشاعر الكبير يخرج بالكلام من موضوع الى موضوع دون مراعاة للوحدة الشعرية باذلا جهده الجهيد في متانة السبك وقوة القافية، وروعة الديباجة ، ومتبعا طريقة من يدعوهم بالفحول من فرسان المنابر ، واعيان البيان وهو مذهب ذلول يسهل معه الترسم والاحتذاء . .

والمسألة هنا ليست مسألة الاستاذ الجارم ، اذ انه رحمه الله لم يذكر لنا طريقته المنهجية في الصياغة ولعلها مفتراة عليه في مجموعها ، ولكنها مسألة هؤلاء الذين اقتنعوا بها حين نقلت اليهم ، وعدوها بابا رائعا من أبواب الابداع وطريقا نافعا من طرق الالهام ، وهم بعد أساتذة أدب يشرحون النصوص المدرسية للطالبات والطلاب ؟ وانا اذ أغضبهم بما اقول فسأرضي دون شك صديقي المربي الاديب الاستاذ عبدالجليل صديق فايد الذي أهدي له هذا المقال على صفحات «الاديب» !

الفيوم – دار المعلمات **محمد رجب البيومي**



الشلال المغلول

كبلته المطامع بقيودها وأجرته خاضعا لمشيئتها، بعد ان كان يجري متدفعا كما يشاء وتشاء له امه الطبيعة .

يا فجر خدنك أين ضلا ؟ ... أطللت انت وما أطلا
هذي حبالك ، ما أراه ... بها تأرجح او تدلى
ومجامر الاضواء فيك ... توهجت أرجا وطلا
ما باله لزم السكوت ... وكنت ان بخرت صلى
مذ كان كنت رفيقه الاعلى وهاديه الاجلا
يجري بنورك في مهاويه ... فيأمن ان يزلا
ويذيب ضوءك لؤلؤا ... ويصوغه وردا وفلا
تتجاريان وطالما ... قصرت في سبق وجلى
جاريته حتى الدجى ... فوقفت مرتبكا وظلا

يا فجر من خنق اللواء ... واغمد السيف المحلى
وأزال اكرم حلية ... عن عاتق الجبل المعلى
انظر اليه مطأطئا ... في الارض بعد العز ذلا
قد غص بوق الفجر في ... فمه وعرش النور ثلا

يا فجر لا تسكب فبعد اليوم كأسك لن تعلا
الكأس حليتها الغناء ... أدر على نغم والا ...
شاديك غاب وغيض الساقي وخمرك صار خلا
عجبي لوجهك كيف يجرؤ ... بعد ذلك ان يطلا !

يا فجر ما هذا الوجوم على الطبيعة قد تجلى
أطللت لا غصن أملت لها ولا حركت ظلا
قد بح معزفها الدفوق ... وساعد العزاف كلا
واللحن كبل في منابعه وفي مجراه غلا
لهفي على شلالها الشادي غدا وترا أشلا
وخلا من الانشاد واديها وشاعرها تخلى
فتعطل الناقوس فوق السفح وانقفل المصلى !

فارس سعد

الشيخ عبد القادر المغربي

بقلم محمد عبدالغني حسن

ان العروبة في اطارها الكبير الواسع لا تفرق بين الاوطان العربية في مشرق الارض ومغربها . واذا كان شاعرنا احمد شوقي يقول في موشحته عن صقر قريش : اين شرق الارض من اندلس ؟ فنحن اليوم لا نؤمن بالسدود بين البلاد العربية مهما اختلفت بقاعها ، وتباعدت من الارض رقاعها .

أثار في نفسي هذا الخاطر هذه النسبة المغربية في اسم الشيخ عبدالقادر مصطفى المغربي ، فقد كان كثير من اهل زماننا يظنونه مغربي النسب ، مغربي المولد ، بل كان بعضهم يظنه مغربي الاقامة مثل العلماء الاجلاء الطاهر بن عاشور ، وحسن حسني عبدالوهاب ، وعبدالله كنون وعلال الفاسي واضرابهم . ولكن علامتنا الشيخ عبد القادر المغربي مغربي بأصله فقط ، فهو مشرقي المولد ، وكذلك ابوه الشيخ مصطفى المغربي الدرغوثي ، وآباؤه حتى الجد الثالث عبدالرحمن المغربي الذي تولى الافتاء في طرابلس الشام واللاذقية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .

وقد كادت مصادر السير تتفق على ان الشيخ عبد القادر المغربي ولد في طرابلس الشام سنة ١٨٦٧ ، الا مصدرين انفردا وحدهما بأنه ولد في اللاذقية ، والمصدران هما المرحوم الدكتور محمد اسعد طلس ، ونقل عنه الاستاذ سامي الكيالي مد الله في عمره . ولا أدري على اي مرجع عول هذان المصدران ؟ . ومسافة الخلف بين طرابلس الشام واللاذقية كمسافة البعد بينهما هينة يسيرة . ولكن الخلاف في ذاته يعيد الى الاذهان قضية تحقيق اماكن الميلاد والموت ، وتواريخ الولادة والوفيات في تاريخ الادب العربي وفي كتب التراجم والطبقات .. واذا كان الخلاف مقبولا في العصور الماضية البعيدة منا – حيث كان الاهتمام بالتسجيل والتقييد لم يبلغ مداه فان وقوع الخلاف في زماننا الحاضر امر مستغرب مع قرب العهد، وتوفر اسباب الضبط .

وقد نشر آل المغربي العلم في طباق الارض ما بين مغرب ومشرق . فقد كان أجداده في تونس وطرابلس الغرب اعلام هداية ، ومنارات علم ، كما كان ابوه واجداده الثلاثة : أحمد وعبدالقادر وعبدالرحمن رجال قضاء

* ألقيت في الاحتفال الذي اقامه المجلس الاعلى للفنون والآداب بالاشتراك مع مجمع اللغة العربية في قاعة الاحتفالات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، احتفالا بمرور مائة عام على مولد الاستاذ عبد القادر المغربي .

وشيوخ فتيا في الشام بمعناها الواسع ما بين طرابلس واللاذقية . بل كان جده عبدالرحمن مفتي طرابلس الشام واللاذقية لمدة خمسة وأربعين عاما . وعبدالرحمن هذا هو الذي ترجم له المرادي صاحب « سلك الدرر » في الجزء الثاني من كتابه ، وقال انه سافر الى اسلامبول سبع عشرة مرة ، وتوفي سنة احدى وتسعين ومائة بعد الالف .

لم يكن عبدالقادر المغربي جليس دار ولا قعيد منزل. ولعله ورث هذه الحركة الدائبة وحب الرحلة والنقلة الدائمة ، عن جده الاعلى عبد الرحمن . وكانت نقلته دائما في سبيل العلم والمعرفة والتزود من الطلب . فقد تتلمذ استاذنا عبدالقادر على علامة طرابلس الشام في وقته الشيخ حسين الجسر مؤسس المدرسة الوطنية هناك . فلما عطلت هذه المدرسة ، ونقل الجسر الى بيروت تبعه تلميذه عبدالقادر ونقل تحت نظارته في المدرسة السلطانية ببيروت . وضاقت الشام بآمال عبدالقادر ، فولى وجهه شطر الاستانة ليدخل – كما قال في كتابه عن جمال الدين الافغاني – في بعض معاهدها الدينية . وكان ذلك في سنة ١٨٩٢ وسنه على أبواب الخامسة والعشرين . وغريب ان يولي المغربي وجهه شطر الاستانة ! ألم يكن له في القاهرة بأزهرها المعمور بديل من ان يتخذ له وجهة اخرى؟ قد تكون احكام الوراثة هنا فعلت فعلتها . فان اجداده حتى عهد عبدالرحمن كانوا أميل الى عاصمة الخلافة الاسلامية . وما هنا محل للغرابة ، فانهم يرجعون جميعا الى جدهم الاصلي طورغود باشا التركي الذي تولى منصب أمير البحر في تركيا في القرن العاشر . ومن هذا الاسم التركي «طورغود» جاء الاسم العربي درغوث الذي اشتهر به آل المغربي في تونس من زمن بعيد . على ان هناك سببا آخر لرحلة الشيخ عبدالقادر المغربي الى الاستانة ، فقد علم ان المصلح الكبير السيد جمال الدين الافغاني ينزل بها، وهو محب للافغاني ، قارىء له ، معجب به ، وطالما نسخ بيده اعداد العروة الوثقى كلها من الفها الى يائها لا يخرم حرفا ولا ينقص كلمة ، بعد ان سمع بها وبالسيد جمال الدين من شيخه الآخر في بيروت : الشيخ أحمد عباس الازهري المشهور في الشام بعلمه ووطنيته ، وصاحب الكلية الاسلامية التي اشتهرت باسم كلية الشيخ احمد عباس ، والتي كانت ذات اثر كبير في تربية روح اليقظة العربية الحديثة . ومن هنا قويت في نفس المغربي رغبة ملحة في ان يرى الافغاني حيث هو في عاصمة الخلافة ، ويلقاه ويأخذ عنه ، ويظل في جواره سنة كاملة .

وتعمل عوامل الرحلة والحركة في نفس المغربي ،فما تكاد تصل اليه دعوة من الشيخ محمد عبده الى مصر في سنة ١٩٠٥ حتى يلبيها ، ويشد الرحال الى بلد الاحرار ، وموئل الثوار . وكان الاستاذ الامام قد دبر له وظيفة في دار الافتاء باتفاق مع مصطفى فهمي باشا رئيس الوزارة

المصرية يومذاك . ولكن الاقدار كانت تهيء للمغربي قدرا آخر غير الوظائف . وللاقدار وسائلها في تغيير الخطط، وتبديل التدبير ، فاذا بالشيخ محمد عبده يموت بعد وصول المغربي الى القاهرة بقليل . واذا الوظيفة المرتقبة لا يتم أمرها . واذا المغربي لا يعدم وسيلة للعمل الصالح المجدي ، فيعمل محررا في جريدة «الظاهر» التي كان يصدرها المحامي محمد بك ابو شادي ، ثم ينتقل بعدها الى جريدة « المؤيد » التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف ، ليشغل المكان الذي كان يشغله فيها الشهيد الزعيم العربي عبدالحميد الزهراوي ، الذي حكم عليه الاتراك سنة ١٩١٦ ، وفي ديوان عاليه العرفي بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم شنقا بدمشق ، وكان ذنب الزهراوي انه نادي بتحرير العرب من النير التركي البغيض ..

وعادت عوامل الرحلة ، ونوازع الحركة تصطرع في نفس المغربي بعد أربع سنوات قضاها في القاهرة ، فعاد الى الشام سنة ١٩٠٩ . ولم تكد تلوح له فرصة السفر الى المدينة المنورة سنة ١٩١٤ حتى قصدها منضما الى الشيخ عبدالعزيز شاويش والامير شكيب ارسلان للاشتراك في انشاء كلية اسلامية سمتها الحكومة العثمانية «معهد دار الفنون» . ولاحت للمغربي فرصة اخرى للسفر الى القدس سنة ١٩١٥ ، والحرب العالمية الاولى في ثاني اعوامها ، للاشتراك في تأسيس « الكلية الصلاحية» وتنظيم شؤونها والتدريس فيها . وكان شريكاه في هذه المرة ايضا الامير شكيب ارسلان والشيخ عبدالعزيز شاويش . وكان هؤلاء الثلاثة — احقاقا للحق — مع قلة غيرهم من المسلمين ، لا يزالون يجدون في الخلافة العثمانية حينذاك بقية من امل في لم شتات الامة الاسلامية .

وظل المغربي يشتغل بالتدريس في الكلية الصلاحية بالقدس عاما وبعض عام .وكان مديرا لتحرير جريدة الشرق . ولما عين المغربي عضوا بمجمع اللغة العربية بمصر سنة ١٩٣٣ صار جسمه موزعا بين القاهرة ودمشق ، فهو حريص كل الحرص على شهود جلسات المجمع القاهري في شتاء كل عام ، كما كان حريصا على اداء واجبه في المجمع العلمي العربي بدمشق ، منذ انتخب عضوا عاملا سنة ١٩١٩ الى ان لقي وجه ربه الكريم .

لعل ما يميز حركة المغربي ونشاطه ان جهوده لم تنحصر في دائرة واحدة ، فهو رجل متعدد النواحي في اصلاحه وكفاحه . لقد وزع جهوده الدائبة في مجالات شتى ، وفرق نشاطه الجم على ميادين مختلفة . ومن توفيق الله له ومناصرته اياه ان توزيع الجهود لم يعطل طاقاته ، ولم يشتت قواه ، ولم يزحم حيويته . وكأنما كان يقسم بالسوية بين تلك الميادين ، حتى لا يجورميدان على صاحبه . فله جهود في الدين ، وجهود في السياسة، وجهود في الاصلاح الاجتماعي ، وجهود في التربية والتعليم ، وجهود في اللغة العربية واثرائها عن طريق تعريب الالفاظ والاساليب ، وله جهود في تحقيق الكتب ونشر القديم المفيد من التراث العربي ، وله جهود في الصحافة الادبية والسياسية على السواء . وله جهود في نقد الكتب والتعريف بها .

وتتسم جهود المغربي في تلك الميادين بالنظر الواسع، والفكر المتحرر ، والعقل الحر المتزن ، الذي لا يتشبث بقديم لقدمه ، ولا يندفع نحو جديد لجدته ، ولكنه يأخذ منهما خير ما ينفع الناس وينفع امته على وجه الخصوص. ومن هذه العقلية المتحررة المتنورة استطاع خصوم الشيخ عبدالقادرالمغربي ان يجدوا منفذا الى الطعن فيه ،والتشهير به ، واتهامه بالكفر والمروق ، كما اتهم من قبل استاذاه الافغاني ومحمد عبده ، وكما اتهم قبلهم كثير من زعماء الاصلاح ودعاة التجديد وحرية الفكر في الاسلام .

ولم يكن من المعقول لرجل متحرر ، وشيخ متنور مثل المغربي ان تمر حركة تحرير المراة التي دعا اليها قاسم امين دون ان يصيب الشيخ شواظ من نارها . فقد كتب البحوث العديدة ، ونشر الرسائل الضافية يناصر حركة التحرير ، ويهاجم الحجاب الكثيف المعروف ، ويقرر انه لم يكن مما شرعه الاسلام ، وانما حدث بحدوث ضعف الوازع الديني في النفوس .وظل المغربي من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١١ يناصر في مصر وفي الشام حركة السفور الشرعي في منطق قوي ، وفي حجة بالغة ، مما اثار عليه الجامدين ، والب عليه المتزمتين ، فحملوا عليه حملات شديدة ، ولكنه صبر لهم ، وثبت امامهم ،وتشبث بالصيال في معركة دقيقة شائكة ، تنزلق اليها التهم ، وتزلق فيها القدم . ولا تزال مقالات المغربي في مجلات وجرائد المؤيد ، والعلم المصري ، والهداية ، والمفيد ، والمقتبس وغيرها من صحف مصر والشام تحمل من صميم المعركة وآثارها ما يجب على كل مؤرخ لحركةتحرير المرأة الا يفوته الرجوع اليه .

واذا كان الشيخ مصطفى المغربي — والد صاحبنا — قد اراد لولده ان يكون فقيها محافظا يقف عند النصوص ولا يناقشها ، فان الله قد أراد لهذا الابن ان يكونمجتهدا، وان يحمل على الجمود بكل ما يملك من قوة.وله في ذلك عبارات منها : (يحاول قوم من الجامدين ان يأخذوا اولئك المتنورين بالتقليد الاعمى ، وان يحملوهم على الاذعان والتصديق بمجرد نقل النصوص ، وسرد اقوال المتفقهين . ولكن محاولة هذا منهم هي مقاومة الطبيعة. والنجاح في امر مقاومتها امر مستحيل . عقل حر في نفسه ، حر في تربيته ، حر في حكومته ، حر في عصره، حر في الوسط الذي يعيش فيه ، تكلفه ان يقلد غيره تقليدا اعمى ؟ اللهم ان هذا تكليف بما لا يطاق ...)

ولقد جنت هذه الحرية الفكرية على الشيخ المغربي كما جنت على غيره من احرار الفكر . ولكنها الجناية التي يلقاها الاحرار باسمين صابرين ، ويلجأ اليها الحاكم المستبد حين يعز عليه ان يواجه ومضات العقول بومضات العقول ... فقد لجأت حكومة السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٥ الى اضطهاد الاحرار ، والى سجن اصحاب الاقلام

والافكار . وكان الشيخ عبد القادر المغربي ممن تشرف السجن بهم .

ومن عجب ان خليل باشا البكدشلي والي بيروت يومذاك قد ذهب بنفسه الى طرابلس ليعتقل الشيخ بيديه ،مما يكون له زلفى عند سلطانه الجائر عبدالحميد . . وأخذ الوالي معه الشيخ المغربي ليكون رهين الحبس لبضعة من الشهور .وكان مما أخذه اعوان السلطان عبد الحميد على الشيخ عبدالقادر المغربي صراحته في نقد السياسة الداخلية لهذا الطاغية . وكان المغربي قد نظم ابياتا حين بلغه انفاق السلطان اموالا طائلة على بناء قبر وضريح لوالد مستشاره الداهية الشيخ ابي الهدى الصيادي الحلبي الاصل ، في الوقت الذي يضن فيه عظمته على مشروعات الاصلاح في البلاد ويهمل مصالح المسلمين . ولعل جاسوسا من جواسيس عبدالحميد قد نقل اليه هذه الابيات التي يقول فيها المغربي فيما قاله من شعر :

بلغ امير المؤمنين نصيحة تبغي القبول ، ولا تريد ثوابا
قبر تعمره ببدرة عسجد وتعيد عمران البلاد خرابا
تكسو الدعي الحلة البيضاء اذ تكسو الشعوب من السواد ثيابا

ومما يؤكد وضوح النزعة الاصلاحية عند المغربي انه شرع قلمه في سنة ١٩٠٦ وفي جريدة المؤيد ليكتب سلسلة من المقالات والدراسات في سبيل الدعوة الى اصلاح الازهر على الرغم من انه لم يتعلم فيه . وقد تأثر في هذه النزعة بأستاذه الشيخ محمد عبده . فكان بذلك من الرواد الذين لهم رأي في تاريخ اصلاح هذه الجامعة الاسلامية العتيقة . على انه في الوقت نفسه لم تنسه دعوة الاصلاح في الازهر ان يدعو بحرارة وحماسة الى انشاء « الكلية المصرية » او الجامعة المصرية ، حين بلغه ان جماعة من المغرضين يعملون على تثبيط همة القائمين بمشروعها . فقد رأى في قيام تلك الجامعة سبيلا الى الاخذ بالاساليب الجديدة التي لم يستطع الازهر حينذاك ان يأخذ بها .

أما جهود المغربي في اللغة فتبدو اكثر وضوحا في دعوته الصريحة الدائمة الى فتح باب التعريب ، منذ الف كتابه الاشتقاق والتعريب في سنة ١٩٠٨ وأهدى النسخة الاولى منه الى سعد زغلول الذي كان وزيرا للمعارف في ذلك الحين ، ولم يكتف المغربي بالدعوة الى تعريب الكلمات بل دعا الى تعريب الاساليب ، وكان مما قاله في ذلك جملته المأثورة : (ان كلا من تعريب الاساليب وتعريب الكلمات امر طبيعي في لغات البشر ، يتعذر تجنبه والاحتراز منه ، بل ان العناية الالهية التي جعلت لتفرق بذور النباتات نواميس تساعد على نموها وبقاء جنسها ، كذلك هي جعلت للغات نواميس تساعد على نموها وتكاثر تعابيرها) .

ولم يدع المغربي ميدان تحقيق الكتب دون ان يدخله ، ففي سنة ١٣٤٤ — سنة ١٩٢٥ حقق كتاب « التنمية على غلط الجاهل والنبيه » لابن كمال باشا من رجال القرن العاشر الهجري ، وألحق المحقق بالنص المحقق رسالة جليلة كتبها في موضوع طريف عنوانه : « اللغة العربية في دولة الترك العثمانيين . وفي سنة ١٣٦٧ — سنة ١٩٤٨ حقق القصيدة التائية التصوفية لعامر بن عامر البصري نشرها له المعهد الفرنسي بدمشق . ولم يكتف المغربي بشرح التائية والتعليق عليها وتحقيق نصها ، بل صنع لها مقدمة طويلة نفيسة . ومما نذكره عن عامر البصري هذا انه من حكماء العرب المسلمين ومتصوفتهم في القرن الثامن الهجري ، وانه عارض بتائيته هذه تائية عمر بن الفارض .

ويبدو حب المغربي لمناقشته المسائل وتمحيصها من هذا الخبر الخاص بكتاب التنبيه على غلط الجاهل والنبيه . . فقد كتب اليه العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا يقول له : ان هذه الرسالة لابن كمال باشا ، وانه لا شبهة في ذلك . فيرد عليه المغربي قائلا : أما انا فأقول ان لدي بعض الشبهة . ثم يمضي رحمه الله في ذكر الاسباب التي تحمله على ذلك .

لقد غيب بطن الارض في عام ١٩٥٦ الذي توفي فيه الشيخ عبدالقادر المغربي طائفة كريمة من الاعلام الذين خدموا الفكر العربي واللغة العربية وآدابها ، منهم المعمر ، ومنهم غير المعمر . فمن غير المعمرين الدكتور محمد حسين هيكل ، والشيخ عبدالوهاب خلاف وعبدالحميد العبادي من اعضاء مجمعنا الراحلين . ومن المعمرين الشيخ عبد الحميد الكيالي مفتي حلب وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، وقد عاش ٧٧ عاما ، والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف الباحث العالم المؤرخ وعضو مجمع دمشق ايضا ، وقد عاش سبعة وثمانين عاما . والكونت فيليب نصر الله طرازي صاحب موسوعة تاريخ الصحافة العربية وقد عاش واحدا وتسعين عاما . والمستشرق الالماني كارل بروكلمان وقد عاش ٨٨ عاما ، والمؤرخ الحضاري جورج سارطون صاحب تاريخ العلم ومنصف الفكر العربي ، وقد عاش اثنين وسبعين عاما ، على ان المغربي نفسه قد عاش قريبا من التسعين عاما ، فكان بذلك ثاني المعمرين في هذه الحفنة الكريمة الراحلة ، وبهذا انطبق عليه وعلى رفاقه في تاريخ الوفاة وفي طول العمر ، ما جاء في الاثر : خيركم من طال عمره وحسن عمله .

ومن الموافقات السعيدة ايضا ان حفنة كريمة اخرى من الاعلام قد ولدوا في العام الذي ولد فيه الشيخ عبد القادر المغربي اعني سنة ١٨٦٧ م المقابلة لسنة ١٢٨٤ هـ . ومنهم العالم المحقق احمد زكي باشا ، والزعيم المصابر محمد بك فريد ، والمصلح المجاهد عبدالعزيز شاويش ، والشاعر الرقيق الشيخ نجيب الحداد ، والكاتب الصحافي عبده بدران .

ولا شك انهم خالدون في ضميرنا وفي ضمير الزمان ، الذي لا يجوز عليه اغفال ولا نسيان .

القاهرة **محمد عبدالغني حسن**

جنان اللوز

فؤاد الخشن



ازهر اللوز ... ايا غائبة
عن جنان اللوز
في تلك المدينه !
كل نجم ههنا ... منفرط
تارك ، من قسوة الريح ، غصونه
خاله لؤلؤ عينيك
الذي رحت في يوم التنائي
تنثرينه
القا ... يهمي على منديله
راعشا ... فجر بالدمع جفونه !
هو في وحدته مستسلم
للشرود الحلو ...
في هذه السكينه
يتمنى ضم خصر طيع
كم تشهى
زنده الملهوف لينه !
جوه ندف ثلوج ترتمي
باتئاد .. تشرب العين فتونه
وغصون مائدات
زررت
في المدى الرحب
بماسات ثمينه
خافقات كقناديل ...
طفت في غدير
يفتح الفجر عيونه !
او رياش ...
نتفت من طائر
وفراش أيقظ الزهر حنينه !

يسكب اللوز
دموع الشوق
في موطن اللوز اسى !
اذ تهجرينه
وكذا الصفصاف يجثو
لهفا للقاءات ...
وتنوي يا سمينه

هل تعودين
ايا عشتاره ؟
ليعود الريف
خصبا ... ولدونه !

الطبقة من الشعراء لدى محمد بن سلام

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

* * *

سمى محمد بن سلام (المتوفي عام ٢٣٢) كتابه « طبقات الشعراء » ، والتسمية وجيهة لها ما يسوغها من خطة الكتاب ومنهجه : انه قائم على الطبقة .

ولم يكن ابن سلام مكتشفا لكلمة «الطبقية» وانما استعملها كأنها امر معروف مألوف ليس به حاجة الى تبيين او توضيح ، ولا غرو ، فقد عرف عصره طبقات الصحابة وطبقات المحدثين ... والفقهاء ... والنحاة ... والفرسان (١) .

والحقيقة ان (اختراع) الطبقة والطبقات ليس بالامر الهين ، او بالظاهرة الطارئة ، وانما هو حدث حضاري يدل على وجود اناس يديمون النظر ويبحثون في الاشباه والنظائر ، ويتاملون ، ويصنفون بهدوء العلماء في جو من الاستقرار والتجرد ، وكان هذا كائنا في عصر محمد بن سلام ، وقبله كذلك .

كانت « الطبقة » ـ وظلت طويلا ـ مرتبطة بالزمن ، فاذا قلت الطبقة الاولى من الصحابة ، كان كلامك يعني الطبقة الاسبق الى الاسلام ممن يليها ، واذا قلت الاولى من النحاة ، قصدت الى الطبقة التي سبقت الطبقة الثانية زمنا ... وهكذا ..

ولعلهم قالوا : طبقات الشعراء او الطبقة الاولى من الشعراء.. وهم يربطون الاستعمال بالزمن .

ان التقسيم على أساس الزمن اسهل مما سواه ، وقد اقتضته ضرورة التفسير والحديث .. واللغة ، أما في الشعر فالزمن يمكن ان يكون عاملا خارجيا لا ينفذ الى صميم التجويد .

اما محمد بن سلام فاستعمل « الطبقة » و«الطبقات» لدلالة فنية جمالية دون ان يجعل الزمن عاملا أساسيا ، وقد يكون مسبوقا ـ بوجه من الوجوه ـ الى هذا الاستعمال (٢) ولكنه يظل من المبكرين فيه ، وقد يكون الاول في ادامة النظر فيه والتوسع به واتخاذه أساسا لتاليف كتاب .وكانه احس بجدة هذا المعنى الذي تحمله كلمة الطبقة في عمله ، او احس بغموضه لدى السامع والقارىء فرأى نفسه ملزما في توضيحه فقال وهو يقدم الشعراء الجاهليين « ... اقتصرنا من الفحول المشهورين على اربعين شاعرا ، فالفنا من تشابه شعره منهم الى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط متكافئين معتدلين » (٣) . ولا بد من ان يكون استعمال كلمة «طبقة» في مثل هذه الحالة مرحلة جديدة في تاريخ اللفظة وتطورها (٤) .

وهكذا كان محمد بن سلام منهجيا في عمله : نظر فأدام النظر ، وجمع المواد فأطال الجمع ، ثم مخض الحاصل لديه فأخرج الشوائب وما لا يمت لصميم عمله بصلة ، ولم يبق من الكثير الا أربعون شاعرا هم «الفحول» بين من سواهم وتجمعهم صفة هي «الفحولة» .

ثم نظر في هؤلاء الاربعين ، او بمعنى ادق ، نظر في شعرهم وعني ـ اكثر ما عني ـ بالجانب الجيد والصفة البارزة ، وجمع بين «المتقاربين» في مستوى التجويد فكانت لديه عشر مجموعات جعلها طبقات .

ومن هنا جاء المكان البارز الذي يشغله محمد بن سلام في الكلام على طبقات الشعراء (٥) .

وكنا نود لو أنه شرح لنا معنى الفحولة وبين مدلول التشابه فيها ، ولكنا لم نعثر على شيء من هذا ، ولعله شرح وبين في الصفحات التي لم تصل الينا من مقدمة كتابه ، وطبيعي ان تعنى الفحولة ، في أبسط الدلالات : التمكن في اعراب ذوي المواهب عن خلجات نفوسهم شعرا ، وهي ـ ان شئت ـ ما نسميه اليوم : الاصالة .

وقد فسرها الاصمعي فقال « الفحل من الشعراء» «من له مزية على غيره » (٦) .

ومعنى هذا أن التشابه لا يدل على اتفاق أربعة شعراء في معنى أو غرض او تيار او مدرسة او أي شيء من ذلك.لان التشابه لدى ابن سلام ان يكون اختلافا في هذا اولى من ان يكون اتفاقا ، والا فكيف يمكن ان نجمع اربعة كل واحد منهم له مزية على غيره ونسمي ذلك تشابها ، كيف نجمع امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن ابي سلمى والاعشى وندعي انهم متشابهون ، وهم متخالفون ، وجد متخالفين ، يدل على ذلك اختلاف أحكام الناس عليهم ، فعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس واهل الكوفة يقدمون الاعشى واهل الحجاز يقدمون زهيرا ، ويذكر كل حزب حججا في الدفاع عن رأيه غير حجج الآخر ، ويشيد من صاحبه بصفات ليست لغيره (٧) ، ان اجتماع الشعراء الاربعة اجتماع جوهر ، وليس اجتماع عرض (٨) .

وعلى هذا يكون الاساس المهم الذي بنى عليه ابن سلام عمله هو : التشابه .وهو أساس فني صرف ينبثق من صميم الشعر وطبيعته دون نظر يذكر الى زمان او مكان او موضوع او قبيلة ، انه ينظر في الشعر نفسه مجردا ، كيف يتشابه في الفحولة ، والى اية درجة ، وكلما تقارب فيها اربعة شعراء كون منهم طبقة ... وهكذا ، ثم تأتي الاشياء الاخرى لدى الكلام على كل شاعر منفردا ضمن طبقته .

وقد يكون هذا الاساس ذاتيا ، وقد نناقش صاحبه في وسيلته لتعيين الدرجة ، لان المسالة ليست مسألة مادية ، ولا يوجد «مقياس» خاص للشاعرية ، الى ما هنالك من اسئلة يمكن ان تثار بحسن نية حينا ، وبسوء نية حينا آخر .

ولكن ابن سلام لم يبد «طائشا» متعصبا جاهلا فنشتد معه في الحساب او نمعن في السخرية ، وانما كان عالما رصينا متأنيا ، يصل الى النتائج بالاستقراء والاستئناس بآراء الآخرين والاستعانة بأحكامهم حتى ليمكن ان يقال انه موضوعي في ذاتيته .

واذا ، فالمقصود ، بالتشابه ان يقترب الشعراء الاربعة في درجة القوة في التعبير أي في الشاعرية . ولو كان معنى التشابه غير ذلك لرأينا الشعراء الاربعة ، يجمعون لامر خارجي ، ولرأينا الابيات التي تذكر لهم خاضعة لجامع المظهر الخارجي ، ولما رأينا زهيرا الى جوار امرىء القيس في أية حال من الاحوال .

اجل ، ان التشابه في الفحولة هو الاساس المهم ـ ان لم يكن الوحيد الجدير بالعناية في منهج ابن سلام وهو أصعب مما سواه تحقيقا ، وأعسر بلوغا ، وأبقى في النقاش الفلسفي من أي اساس آخر وأي تشابه .

ويتصل باساس التشابه هذا اساس الكثرة (مع الجودة) ، وهذا واضح في مثل قوله وهو يتكلم على الطبقة الرابعة من الشعراء الجاهليين : «هم اربعة رهط فحول شعراء ، موضعهم مع الاوائل ، وانما اخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة ... فأما طرفة فأشعر الناس واحدة» (٩) .وقوله «كان الاسود شاعرا فحلا» ... وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر ، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته وهي : «نام الخلي وما احس رقادي» وله شعر كثير جيد ، ولا كهذه ... (١٠) ، وعن الطبقة السابعة » في أشعارهم قلة فذاك الذي أخرهم » (١١) .

وقد يبتسم من يسمع باتخاذ الكمية اساسا في التفضيل ، وقد يعلق بتعليقات تحمل معاني السخرية ، ولكن الواقع لا يؤيد الابتسام ، ويشجب السخرية ،فكل شعراء العالم الكبار (الفحول) يتميزون بالوفرة . وكل ما في الامر ان نشترط الجودة مع الكثرة ، وهذا ما تنبه اليه ابن سلام ـ كما رأينا (١٢) .

والواقع ان ابن سلام جاد في عمله متان في تصنيفه رصين في مجلسه .وهو لم يغلب الكثرة ـ كما يرى الدكتور مندور (١٣) وآخرون.

وقد يكون أهم ما يلاحظ على نظام ابن سلام الطبقي جعله كل طبقة «اربعة رهط متكافئين معتدلين».فكيف تم هذا البناء الرباعي ، هل هناك قصد سابق لجعل الشعراء كذلك ، او هو تأثر بأمر من معرفة ومعتقد وفلسفة ومنطق ؟لم هذا التكافؤ والاعتدال ؟ وكيف تم ؟ انه ليبدو مقصودا اكثر منه طبيعيا.لم لم تكن طبقة اربعة رهط وأخرى ثلاثة وأخرى خمسة ...؟

ان المرء ليحس ازاء تصنيف ابن سلام هذا بشيء من العمليات الرياضية ، يضعف المعنى الادبي ويدعو الى التكلف بادخال فلان في غير طبقته اكمالا للاربعة ، واخراج فلان من طبقته ابقاء على الاربعة .

أجل ، انه ضرب من تحكيم المنطق اكثر مما يجب ، فقد يكون الانسب ان تتألف الطبقة الاولى من ثلاثة شعراء هم : امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير ، ويؤخر الاعشى الى طبقة اخرى وقد يبدو لبيد مؤخرا اكثر من اللازم اذ جيء به الرابع من الطبقة الثالثة وقدم عليه ـ فيمن قدم ـ بشر بن ابي خازم وكعب بن زهير . ويبدو عبيد بن الابرص وعدي بن زيد غير متجانسين ـ فحولة ـ مع طرفة في الطبقة الرابعة ، او قد يبدو مناسبا ان تتكون طبقة خاصة من الاعشى والحطيئة ولبيد يمكن ان تكون الثانية ، بعد ان جاءوا في كتاب ابن سلام « الروابع » من ثلاث الطبقات الاولى .

هذه ملاحظة ، مجرد ملاحظة ، لاننا بعيدون عن عصر المؤلف ، وبعيدون عن أحكامه ولا نملك المادة التي تهيأت له . ولكنا ، نبقى ـ مع ذلك ـ مستغربين التزام تأليف كل طبقة من الطبقات العشر من اربعة شعراء دون زيادة في العدد او نقصان ، ان هذا الالتزام يجر الى التعمل ويجور على الحقيقة ، وقد أحس بهذا ابن سلام قبل غيره ، فانه عندما بدأ يصنف حسب الفحولة ـ برأيه ـ اجتمع لديه خمسة نظراء ، هم : امرؤ القيس ، زهير ، النابغة ، الاعشى ، اوس حجر ، ولكنه لم يجمعهم فيطبقة واحدة ، وانما جعل الاربعة المتقدمين طبقة ـ هي الطبقة الاولى ، ونقل أوس الى رأس الطبقة الثانية قائلا : «أوس نظير الاربعة المتقدمين الا أنا اقتصرنا في الطبقات على اربعة رهط (١٤) » .

ونستطيع ان نسأله ـ بكل بساطة ـ ومن الذي ألزمك بهذا ؟ وما ذنب أوس ؟ ألم يذهب ضحية هذا التكلف أوس آخر ؟ أما كان الاولى ان تعدل مقياسك؟

ونأتي الى طبقات الشعراء الاسلاميين فاذا هي عشر كذلك ، فكيف تم ذلك ؟ ولم لم تكن تسعا او احدى عشرة ؟ ان كل طبقة أربعة رهط متكافئين معتدلين .

فكيف ولم؟؟ اننا لا يمكن ان نعزو الى المصادفة هذا التقسيم الذي التزمه المؤلف وألح عليه ، انه منطقا اكثر منه واقعا ، وانه رياضة اكثر منه أدبا .

ومعقول مألوف ان يجمع جرير والفرزدق والاخطل في طبقة لتقاربهم في درجة الفحولة وتشابههم في المدى الذي يقطعونه كلا في ميدانه ، ولكن المؤلف ـ وقد التزم ان يجعل كل طبقة شعراء اربعة ـ زاد عليهم الراعي ، خضوعا للمقياس ليس غير !

وكأنه احس بشيء من التكلف فقال « اختلف الناس فيهم اشد الاختلاف واكثره . وعامة الاختلاف او كله في الثلاثة ومن خالف في الراعي قليل ، كأنه آخرهم عند العامة (١٥) ».

ومما يستغرب لدى استعراض الشعراء الاسلاميين غياب شعراء معروفين مشهورين مجيدين مثل عمر بن أبي ربيعة والكميت بن زيد ، ودخول شاعر جاهلي مثل بشامة بن الغدير (١٦) .

وقد يدل هذا ـ فيما يدل ـ على اضطراب في النسخة التي وصلت الينا من «طبقات الشعراء» . وشيء آخر يذكر ـ لدى ذكر النسخة التي وصلت الينا ـ انها فصلت بين طبقات الجاهليين وطبقات الاسلاميين بفاصل غير قصير فيه اصحاب المراثي ـ وهم اربعة ، وشعراء القرى العربية ، وشعراء اليهود ـ ولم يلتزم في تصنيفهم النظام الرباعي .

اما توالي كل اربعة شعراء ضمن طبقتهم فالمفروض فيه ان يكون على أساس البدء بالاشعر ، او بمن هو الاول بين جماعته ، ويبدو ان هذا هو الذي حدث لدى التحقيق فكان امرؤ القيس رأس الطبقةالاولى، وصحيح أنه نظير الثلاثة الآخرين ، وان كل واحد من الاربعة له ميزة خاصة به تجعله الاول فيها ، ولكن الذي حدث انه قدم عليهم ، فلماذا ؟ لا بد من ان يكون الاول بين المتمايزين . وقل مثل ذلك في الطبقات الاخرى ، ولنا دليل قريب هو الذي جعل المؤلف بمقتضاه أوسا بدءا للطبقة الثانية ولولا قربه من الاولى وتقدمه على الثلاثة الآخرين من الطبقة الثانية لما وضعه ابن سلام حيث وضعه .

هذا هو المفروض وهو الذي يبدو واقعا ، ولكن ابن سلام نفسه يبعدنا عنه ويحاول ان يقنعنا بانه لم يفاضل بين الاربعة ولم يقصد الى ان المذكور اولا هو أولهم وأفضلهم فقال «وليس تبدئتنا واحدا في الكتاب نحكم له ، ولا بد من مبتدأ (١٧) » ، كأنه يدفع امرا او يدافع عن أمر .

أما نهجه في الكلام على كل شاعر فقد شرحه واضحا في مقدمته «فصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء .

وقد اختلف الناس والرواة فيهم ، فنظر قوم من أهل العلم بالشعر ، والنفاذ في كلام العرب ، والعلم بالعربية ، اذ اختلفالرواة، فقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها ، ولا يقنع الناس مع ذلك الا الرواية عمن تقدم (١٨) .

« ... وسنسوق في اختلافهم واتفاقهم ونسمي الاربعة ... ونذر من شعرهم الابيات التي تكون في الحديث والمعنى (١٩) » .

وقد التزم ابن سلام منهجه تمام الالتزام حتى جار ذلك على ظهور شخصية وحرمنا كثيرا من آرائه الخاصة وجعله راوية اكثر منه ناقدا .

لم يأت ـ في حدود علمنا ـ بعد محمد بن سلام من نهج نهجه والف تأليفه .واذا نظرنا في الذي وصل الينا من الكتب رأينا كتابين هما : « الشعر والشعراء » لابن قتيبة (المتوفي سنة ٢٧٦ هـ) ، « وطبقات الشعراء» لابن المعتز (المقتول سنة ٢٩٦ هـ) ، وهما على غير المعنى الذي سار عليه محمد بن سلام ، ولا صلة لهما بموضوع «الطبقة» وبالمعنى الفني الذي التزمه ، بل ان نهجهما يكاد يخلو من الدلالة الفنية في التصنيف ، وكأنهما لم يديما النظر في مجموع المادة المتكونة لديهما ولم يأخذا انفسهما بمراعاة الاشياء والنظائر ولم يحملاها على التأمل الذي يفضي الى التبويب الفني .

سمي كتاب ابن قتيبة «طبقات الشعراء» في طبعة ليدن ، وفي فهرس مكتبة شيخ الاسلام بالمدينة (والفهرس مخطوط ، رقم الكتاب عليه ١٤٠ وعدد اوراقه ١٢٤) .

ووردت في مقدمته أشياء مما ورد في كتاب محمد بن سلام دون ان ينص على المصدر او ان يذكر اسم محمد بن سلام (٢٠) ووردت كلمة «طبقة» في الاسطر الاولى من المقدمة : «هذا كتاب ألفته في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم واقدارهم واحوالهم في اشعارهم ، وقبائلهم ...وما أخذته العلماء عليهم ... واخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التييختار الشعر عليها ويستحسنلها..»، وقد أعاد في المقدمة نفسها كلمة «أقسام الشعر» بما يوضح المقصود بها والمطلوب منها ، ولكنه لم يعد كلمة «طبقات الشعراء» ولم يشر الى مدلول الكلمة عنده .

ثم وردت كلمة «طبقة» في المقدمة نفسها متصلة بالشعراء غير

المشهورين ، ووردت «طبقات الشعراء» كأنها تعني عداد الشعراء .

انك تنظر في طول الكتاب وعرضه فلا تجد أي بناء يقوم على أساس «الطبقة» بالمعنى الذي سار عليه ابن سلام ولا بأي معنى من المعاني المتصلة به .

اما كتاب ابن المعتز ، فعلى الرغم من اضطراب ورد في تعيين اسمه ، فان المعقول فيه ان يكون «طبقات الشعراء» أي طبقات الشعراء المحدثين ، لان المؤلف لم يتحدث فيه الا عن محدثين ، وتبحث عن الداعي الى وجود كلمة «طبقات» في العنوان فلا تجده بينا ، لان الكتاب لا يقوم على اساس الطبقة بمعنى من المعاني المعروفة ، وانما هو سرد للاخبار ومختار للاشعار كأنه يستدرك على ابن قتيبة في الشعراء المحدثين ويذيل عليه .

اذا لم هذه التسمية ؟ لا ندري.ومما جاء في مقدمة الكتاب :

« تأملت فخطر علي الخاطر في بعض الافكار أن اذكر في نسخة ما وضعته الشعراء من الاشعار في مدح الخلفاء والوزراء والامراء من بني العباس، ليكون مذكورا عند الناس ، متابعا لما ألفه ابن نجيم قبلي بكتابه المسمى « بطبقات الشعراء الثقات » مستعينا بالله المسهل الحاجات وسميته « طبقات الشعراء المتكلمين من الادباء المتقدمين .. »

وليس في هذا ما يعنينا على تحقيق بغيتنا.ثم من ابن نجيم هذا؟ يتفق المحققان اللذان نشرا الكتاب متباعدين في الزمان والمكان على زيف المقدمة .وهذا يزيد المسألة تعقيدا ، وانهما لا يعترفان بوجود ابن نجيم ، ويريان أنه تحريف عن «ابن المنجم» ــ وليس بين ابناء المنجم من ألف كتابا باسم «طبقات الشعراء» نصا (٢١) .

ان كتاب ابن قتيبة وكتاب ابن المعتز ليسا كتابي طبقات ، وليس هناك داع لذكرهما كلما ذكر « طبقات الشعراء» . ان لمح الحس الزمني في تسلسل الاسماءالواردة او في مجموعة من الاسماء لا يكفي في هذا ، وهو يقرب الكتابين الى ان يكونا من كتب التاريخ الادبي . أما كتاب محمد بن سلام فلم يكن كتاب تاريخ.

والذين ذكروا كتاب محمد بنسلام في «طبقات الشعراء» واكبروه وأفادوا منه كثيرون ...ولكنا لم نجد بين هؤلاء الكثيرين من استوعب مدلول الطبقة فيه ، ولا من دل على ان المدلول اكتسب قوة على مر الزمن فأصبح اصطلاحا وحال دون التخبط في استعمال الكلمة . ان ابن رشيق (المتوفي سنة ٤٥٦) ــ وهو الاديب الناقد العارف بكتاب محمد بن سلام ، المستفيد منه ــ يقول في باب الشعر والشعراء من كتابه : «العمدة في محاسن الشعر ونقده» : «طبقات الشعراء اربع : جاهلي قديم ومخضرم ... واسلامي ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج ، وهكذا في الهبوط الى وقتنا هذا (٢٢) كأن الطبقة مسألة زمنية ليس غير ، وكأن محمد بن سلام لم يكن .

وحاول ابن رشيق ان يحفظ لنا محاولة في عمل طبقات للمحدثين فقال : « ... ومن طبقة بشار مروان ابن ابي حفصة وابو دلامة ... والسيد الحميري وسلم الخاسر ... ومن طبقة ابي نواس : العباس بن الاخضرومسلم بن الوليد...والفضل الرقاشي وأبان اللاحقي وابو الشيص، والحسين بن الضحاك...ودعبل...وأما طبقة حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي فطبقة متداركة ... وأما المتنبي فلم يذكر معه شاعر الا ابو فراس وحده ...» (٢٣) .

ولا نلمح ــ اليوم ــ سرا للتصنيف على هذا المذهب ، وقد يكون العامل الزمني أساسا فيه ، اي عامل سن الشاعر ، ولكنا لا نرى عاملا فنيا ، ولو تأخر عصر ابن سلام وتصدى لتصنيف المحدثين لعمل شيئا مخالفا كل المخالفة ، ولكان المنتظر ان تتكون الطبقة الاولى لديه من الرؤوس من كل طبقة : بشار ، ابو نواس ، حبيب ، المتنبي ، ولعله كان بدأ بالمتنبي .

ولكن محمد بن سلام لم يتصد للمحدثين ولم يعمل على تصنيفهم او افراد قسم ثالث لهم من كتابه .ولم يكن موقفه مستغربا جدا ، ويمكنك ان تذكر لذلك الموقف اكثر من سبب ، وتصف ابن سلام بأكثر من صفة ، فتقول انه كان راوية غايته بمن سبق عصره ، وكان يتزمت في امر اللغة ويقف لدى الاستشهاد عند الاسلاميين ، وتضيف الى ذلك ان المحدثين في عصره لم يكونوا ــ اذ ألف كتابه ــ قد بلغوا من توطد المكانة ما بلغها السابقون عليهم ، ولم يكن الرأي فيهم قد استقر ، ولم يكن سهلا مخضهم لاستخراج الزبدة ثم تقسيم هذه الخلاصة الى طبقات (عشر) .

يمكنك ان تقول هذا ، ويمكنك ان تعاتب ابن سلام ببعض العتاب، ولكن لا يمكن ان تقول انه حاول ان يخرج من حلبة الشعر بشارا وأبا العتاهية وزملاءه (٢٤) ، فانه اذا لم يخصص بابا لهؤلاء ، لم يخرجهم من حلبة الشعراء ، ولم يرو عنه نص واحد يؤيد ادعاءك ، بل انه روى ــ في غير هذا الكتاب ــ لشعراء محدثين وذكر طرفا من اخبارهم وتحدث بما يدل على تقدير واعجاب ــ وكان ممن تحدث عنهم : بشار ، ابو نواس ، مروان ابن ابي حفصة ، السيد الحميري (٢٥) .

ان محمد بن سلام بنى كتابه بناء منهجيا قائمة على مقدمة راسخة المعالم ، ولم يكن الكلام على المحدثين من وكد المنهج او مما تحتمله المقدمة .ولم يثر المؤلف مسألة القديم والجديد ، لان كتابه قائم ــ منذ البداية ــ على القديم والمسألة ــ مسألة مركز اهتمام وتخصص، وليس من الصحيح ان نحمل الاشياء اكثر مما تطيق .

ان مسألة المحدثين مسألة اخرى ، مسألة زمنية ، وهي لا تهمنا ونحن نحاول ان نفهم مدلول «الطبقة» كما بني عليه كتاب محمد بن سلام ، وليس مناسبا ربط الكلام على مفهوم الطبقة بمعنى الرهط الفني بالكلام على الطبقة بمعنى العصر ، فهما شيئان غير متفقين .

وهكذا يظل كتاب «طبقات الشعراء» منقطع النظير ، ويبقى دليلا على جلال مؤلفه في الباب الذي دخل منه ــ وهو مدخل صعب يستدعي سهرا طويلا وتأملا متصلا .

وكان ابو الفرج الاصبهاني اذا تحدث عن شاعر ــ له علم بذكره في «طبقات الشعراء» ــ يعد محمد بن سلام حكما محترما وسندا جليلا، فيقول ــ كمن يروي امرا خطيرا ويعتمد رأيا حاسما ــ : « جعله محمد بن سلام في الطبقة «كذا»» «وألحقه ابن سلام بالطبقة كذا...» (٢٦).

نرجو ان تكشف لنا الايام ما يهيء لنا علما بتاريخ كلمة «طبقة» ومدلولها في النقد الادبي ، وتزيدنا تأكدا من منزلة محمد بن سلام في هذا وذاك .

---

(١)ينظر طه احمد ابراهيم ، ولا سيما ص ٨٤ .وينظر حاجي خليفة (علم الطبقات) .ومما جاء فيه : طبقات الفقهاء والمحدثين للهيثم بن عدي المتوفي سنة ٢٠٧ ، في اربعة مجلدات ، وطبقات الفرسان لابي عبيدة معمر بن المثنى المتوفي سنة ٢١٠ . ولم يصل الينا الكتابان . وأقدم ما وصل الينا في الطبقات كتاب ابن سعد المتوفي سنة ٢٣٠ « كتاب الصحابة والتابعين او الطبقات الكبرى » وهو يرتب الطبقات على أساس زمني : السبق في الاسلام .. ــ طبع الكتاب اكثر من مرة. وجاء لدى ياقوت ٢٠:٦٥« كان يونس عارفا بطبقات شعراء العرب ». والرواية متأخرة عن زمن يونس.ولكنها تدل ــ ان صحت ــ على ان لفظة «طبقات الشعراء» كانت معروفة لدى الجيل الذي أدركه ابن سلام وتلمذ له . وينظر غرنباوم ١٥١ . (٢) قال طه احمد ابراهيم ٨٤ : «وغير خاف ان جعل جماعة من الشعراء في منزلة واحدة ، فكرة قديمة فطن اليها الادباء الاسلاميون في ان جريرا والفرزدق والاخطل طبقة ، ونماها اللغويون يجعلهم امرأ القيس وزهيرا والنابغة والاعشى طبقة ، ومعنى طبقة انهم نظراء ، وأنهم المتقدمون المبرزون . وفكرة الطبقة الاولى توحي بالضرورة بطبقات اخرى ،وكذلك فعل ابن سلام.» وتنظر منه ص ٨٥ . ومعلوم اننا اذ نقول «طبقة» نقصد الى اللفظة كما

نقصد الى التقسيم والتصنيف ، اي ان اللفظة أساس متين في كلامنا،، أما التقسيم ولا سيما ما كان قائما على المفاضلة : تفضيل شاعر على شاعر ، أو تفضيل شاعر على آخر في ميدان دون ميدان ، أو تفضيل عصر على عصر ...فليس ذلك مما يعنينا كثيرا لانه امر اولي وبسيط. ولكن الدكتور محمد زغلول سلام لم يخرج عنه كثيرا وهو يتكلم على «الطبقات» من قضايا النقد ٦٢ – ٧٣ » . (٣) ابن سلام ٢٢ (٤) لم تؤرخ المعاجيم هذا الطور من حياة اللفظة ، فهي تقول : طبقة : حالة ، طبقات : حالات.ثم تتحدث عن وافق شن طبقة.وخلاصة الحديث انه «مثل يضرب لكل اثنين او امرين جمعتهما مسألة واحدة اتصف بها كل منهما ...– لسان العرب» . ويمكن ان تكون المسألة الواحدة الجامعة منطلقا لتطور الكلمة . (٥) ولو وصلت الينا الكتب التي ألفت بهذه الاسم لكان مجال الدراسة اوسع .وللالمام بهذه الكتب ينظر حاجي خليفة (علم الطبقات) ، البغدادي – ايضاح المكنون ٢ : ٧٩ ، زيدان٢: ١٧١ ، ابن النديم في حديثه عن المصنفين هنا وهناك من كتابه . ذكر البغدادي ٢ : ٧٩ طبقات الشعراء لابي هفان البصري (في اشعار عبد القيس) وطبقات الشعراء لاسماعيل بن يحي اليزيدي. ولدى ابن النديم ١٦٦ : ابو حسان الزيادي الحسن بن عثمان مات سنة ٢٤٣ عن ٨٧ سنة وله من الكتب كتاب طبقات الشعراء. ومن حاجي خليفة (وغيره) نعلم انه قد ألف «طبقات الشعراء» : محمد بن جليب النحوي المتوفى سنة ٢٤٥ ودعبل الخزاعي الشاعر المتوفي سنة ٢٤٦ ، وابو زيد عمر بن شبة البصري المتوفي سنة ٢٦٢ ، (ينظر السيوطي – المزهر ٢ : ٢٧٧) وعثمان بن ربيعة الاندلسي (له كتاب طبقات الشعراء بالاندلس) مات قريبا من سنة ٣١٠. ولدى ابن النديم ١٦٤ « ابو المنعم الزيادي ... له... كتاب «طبقات الشعراء» .يقول بلاشير ١٥٠ : «ونحن نجهل ماهية طبقات الشعراء الذي ألفه اسماعيل اليزيدي وابو نعيم الزيادي» «بل نجهل ماهية كل هذه الكتب التي وصل الينا ذكرها تحمل اسم «طبقات الشعراء» دون ان تصل الينا او ان تصل الينا منها صفحات » . (٦) الاصمعي ١٣ (المرزباني ٤٩). ومفهوم الاصمعي وابن سلام أوسع من مفهوم أصحاب المعاجيم ، أو انه تاريخ لطور جديد من حياة الكلمة ، أصابت في سعة وجدة ، والا فقد تحدثت المعاجيم عن المعنى الحقيقي لكلمة «فحل» عن اشياء ليست مما آل اليه استعمالها لدى النقاد ، واذ ذكرت استعمالها في المجال النقدي حفظت لنا صلة التطور ، ووقفت عند جانب ضيق مما نحن فيه : جانب الغلبة في الهجاء او المعارضة ، وكأنها هكذا كانت تستعمل في العصر الجاهلي والاموي .جاء في «اساس البلاغة» : «.. ومن المجاز : هو من فحولة الشعراء ، وهذه قصيدة علقمة الفحل ، وجرير والفرزدق فحلا مضر» . وجاء في «لسان العرب» : « وفحول الشعراء ، هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم : مثل جرير والفرزدق وأشباههما ، وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة وكان يسمى فحلا لانه عارض امرأ القيس في قصيدته التي يقول في اولها : « خليلي مرا بى على أم جندب» بقوله في قصيدته «ذهبت من الهجران في غير مذهب» وكل واحد منهما يعارض من صاحبه في نعت فرسه ففضل علقمة عليه ولقب الفحل... والفحول الرواة ، الواحد فحل...» (٧) ينظر ابن سلام ٤٣ وما بعدها. (٨) ولم يكن العصر ليجهل التكافؤ وهو من شؤون العقل.وقد ورد في باب «الحمامة المطوقة» من كتاب كليلة ودمنة : «أن أشد العداوة عداوة الجوهر ، وهي عداوتان ، منها ما هو متكافيء كعداوة الفيل والاسد فانه ربما «قتل الاسد الفيل او الفيل الاسد »..

(٩) ابن سلام ١١٥. (١٠) ابن سلام ١٢٣ . (١١) ابن سلام ١٣١ .(١٢) وينظر طه احمد ابراهيم ٨٦. (١٣) مندور ١٠ . ومع ان الدكتور محمد زغلول سلام اشار الى الجودة والكثرة (ص ١٠٥) ، فانه (ص ١١٣) كاد ينسى تلازم الشرطين وجعل ابن قتيبة مخالفا لابن سلام ، وليس الامر على هذه الدرجة . وينظر السباعي بيومي ١٥٧ ، ١٦٠ ، والفاخوري (حنا) – تاريخ الادب العربي ، ط ٣، بيروت ، ص ٧٥٣ . (١٤) ابن سلام ٨١ . (١٥) ابن سلام٢٥١ . كان عمل ابن سلام هذا محط استغراب الباحثين المعاصرين لنا ومجال استفهام ومؤاخذة منذ طه احمد ابراهيم ص ٨٤ حتى محمد زغلول سلام ١٠٣ – ١٠٤ ، وسيظل كذلك . (١٦) ولا يجهل محمد بن سلام هؤلاء الشعراء فقد روى الاصبهاني في حديثه عن عمر بن ابي ربيعة (ينظر الجزء الاول – مثلا) ، اخبارا مسندة اليه ، وذكر هو الكميت في كتابه (ص ١٦٣ ، ٢٦٨ – ٩) ، وروى خبر وفاة بشامة في حياة زهير ، ص ٥٦٣ – ٤ .(١٧) ابن سلام ٤٢ . ومن الدارسين من يرى ان ابن سلام يقدم من يقدمه البصريون – ينظر محمد زغلول سلام ١٠٤ . (١٨) ابن سلام ٢١ – ٢٢ (١٩) ابن سلام ٤١ – ٤٢ (٢٠) تنظر ص ٣٣ – ٣٤ من الشعر والشعراء وتقابل بـ ص ١٩ ، ١٦ – ١٧ من طبقات الشعراء ، وتنظر ص ٤٨ وتقابل بـ ٢٧ . وروى ابن قتيبة في صلب كتابه أشياء ذكر في سندها محمد بن سلام ولكنه لم يذكر اسم كتابه . (٢١) ينظر من طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٧ ، ١٨ ، ٥٨٤ – ٥٨٦ ، وفيها : ألف محمد بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٢٧٩ كتاب «اخبار الشعراء» والف اخوه ابو الحسن علي المتوفى سنة ٢٧٥ كتاب « الشعراء القدماء والاسلامية » والف هارون بن على يحيى «البارع في أخبار الشعراء المولدين ... » ولم تصل الينا هذه الكتب . (٢٢) ابن رشيق ١ : ١١٣ (٢٣) ابن رشيق ١ : ١٠٠ – ١٠١ . (٢٤) كما فعل الدكتور محمد زغلول سلام ٦٣. (٢٥) ينظر – مثلا – العسكري ١٦٢ ، ١٨٢ ، الصولي ٢٨ ، ٧١ – ٧٢ ، المرزباني ١١٦ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٩٤ ، المرزباني – اليغمودي ٣٦ ، ١٨٥ . (٢٦) الاصبهاني٤ : ٢٣٣ ، ٨ : ٢٨٢ ، ٩ : ١٦٠، ١٣ : ١٠٢، ١٨٩...

أهم المصادر والمراجع :

– ابن رشيق (ابو علي الحسن ... القيرواني ، المتوفى سنة ٤٥٦) – العمدة في محاسن الشعر ونقده ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

– ابن سعد (عبدالله محمد بن سعد الزهري ، المتوفي سنة ٢٣٠) – الطبقات الكبرى – بيروت ، دار بيروت – دار صادر ، ١٩٥٧.

– ابن سلام – طبقات فحول الشعراء ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

– ابن قتيبة (ابو محمد عبدالله بن مسلم ... الدينوري ، المتوفي سنة ٢٧٦) – الشعر والشعراء ، بيروت – دار الثقافة ١٩٦٤.

– ابن المعتز (ابو العباس عبدالله المقتول سنة ٢٩٦) – طبقات الشعراء – القاهرة ، (دار المعارف – ذخائر العرب ٢٠) ، ... عبد الستار أحمد فراج) .

– ابن النديم (ابو الفرج محمد بن اسحاق ، صنف كتابه سنة ٣٧٧) – الفهرست – القاهرة ، مطبعة الاستقامة . د.ت.

– الاصبهاني (ابو الفرج علي بن الحسين ... المتوفي سنة ٣٥٦) – الاغاني ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٠ (١٩٣٦ – ١٩٦١) .

– الاصمعي (عبدالملك بن قريب المتوفي سنة ٢١٤ ؟) – فحولة الشعراء ، القاهرة ١٩٥٣ .

– البغدادي (اسماعيل باشا) – ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . استانبول ١٩٤٥ .

– بلاشير – تاريخ الادب العربي – تعريب الدكتور ابراهيم الكيلاني . دمشق (مطبعة الجامعة السورية) ١٩٥٦ .

– حاجي خليفة – (مصطفى بن عبدالله كاتب حلبي ، المتوفي سنة ١٠٦٨) – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، استانبول ١٩٤١.

– السباعي بيومي – تاريخ القصة والنقد في الادب العربي ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٦ .

– الصولي (ابو بكر محمد بن يحيى المتوفي سنة ٣٥٥) كتاب الاوراق – قسم اخبار الشعراء ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

وانتهينا

وانتهينا ...
ومشى الشيب الينا ...
لم نعد طفلا وطفلة
نرسم القلب على صفحة رمل
نسرق الازهار من اطراف حقل
ثم نذروها على قمة تلة

الصبا ..!
كالحلم الناعم مرا
ملأ الدنيا شذى حلوا وسحرا
مثل طيف
لاح في ليلة صيف
فيه غنج البيدر
وانتشاء القمر
ضمخ الليل بحب عطر
وتثنى ... ثم فرا ...
وانتهينا ...
اغلقت بوابة السجن علينا
حز قيد العجز في آمالنا
واخضرار العمر قد جف لدينا
ذبلت ازهارنا ... واندثرت
طرق كنا عليها قد مشينا
وانتهينا ...
بعد ان كنا انتظرنا

أملا ينعشنا
مثلما ينتظر الزرع المطر
وأتى الغيث .. ولكن
بعد ان كنا انتهينا ...

صدىء الاحساس في اعماقنا
وتلاشى الدفء من اشواقنا
لم يعد للحسن في احداقنا
اي معنى !
لم نعد نسمع لحنا
غاضت الانغام في قلب الوتر
والسحر ..
لم يعد يترك في ثغر الزهر
من لماه قطرات
قبل ان يلفظ انفاس الحياة

والرياح ...
لم تعد تصرخ في اذن البطاح
بانفعال
وقتال
خيم الصمت على عالمنا
مات في ارجائه روح الكفاح
وانتهينا ..!

عمان ـ الاردن شجاع الاسد

ـ طه احمد ابراهيم ـ تاريخ النقد الادبي عند العرب . القاهرة، ١٩٣٧ .
ـ العسكري (ابو احمد الحسن بن عبدالله المتوفي سنة ٣٨٢) ـ المصون في الادب ، الكويت ١٩٦٠.
ـ غرنباوم (غوستاف فون) ـ دراسات في الادب العربي ـ ترجمة الدكاترة : احسان عباس ، انيس فريحه ، محمد يوسف نجم ، كمال اليازجي ، بيروت ١٩٥٩ .
ـ القرشي (ابو زيد بن ابي الخطاب) جمهرة اشعار العرب . بيروت ، ١٩٦٣ .
ـ المرزباني (ابو عبدالله محمد بن عمران بن موسى ، المتوفي سنة ٣٨٤) ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . القاهرة ١٩٤٣..
ـ المرزباني ـ اليغموري ـ نورالقبس من المقتبس في اخبار النحاة والادباء والشعراء والعلماء . تاليف المرزباني ، اختصار يوسف اليغموري . تحقيق ردلف زلهايم ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٤.
ـ محمد زغلول سلام ـ تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ .
ـ مندور (محمد) ـ النقد المنهجي عند العرب . القاهرة ١٩٤٨ .
ـ ياقوت (ابو عبدالله ... بن عبد خيرالله الرومي الحموي المتوفي سنة ٦٢٦) ـ معجم الادباء ـ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب. القاهرة ـ دار المامون ، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ .

جامعة الرياض علي جواد الطاهر

قصة

رجين !.

تأليف ديزي موصللي

ترجمة سعد صائب

« رج ... ين ! رجيـ ... ن ! رجين المجنونـة !

كانت هذه الكلمات تغنى بصوت عال فتمزق حجب السماء ، وتمضي فئة من الصبية تحدق بها ، مراعية كل مرة مسافة ترتضيها ، تتيح لها فرارا محتمل الوقوع عند اول نذير يدعوها للكر او الفر . بيد ان هذه الفئـة تعي وعيا جيدا ان الكر المعاكس لن يحدث . اذ يطيب لرجين ان تصرخ دوما : يا للصبية الانجاس ! اولاد الشحاذين ، ليأخذكم الشيطان ! ماذا تبتغون مني ؟ ولا تبرح اصوات الصبية تعود اجمل مما كانت مقلدة صوتها في نغمة باكية: « ماذا تبتغون منـي ... أو ... أو ... » ان الاستاذ حمدي المدرس ، هو وحده منقذ رجين الجدير بانقاذها . ان المشهد طقسي : ما ان يضع الاستاذ حمدي رجلا خارج داره ، حتـى يصفر صبي في زاوية الشارع منذرا رفاقه ، فتسرع الخطى من كـل حدب وصوب ، فيقفر الشارع بغتة بفعل عصا سحرية ، وتروح رجين تدمدم من فم أدرد ، شاكرة للاستاذ حمدي صنيعه ، ثم تعاود سيرها جارة ساقها اليسرى . لم يكن بسوء رجين ان تقضي صباحها تطهي متمهلة طعاما شهيا في بيت صالح ، لان عملها هذا لا يكلفها عناء كبيرا ، بل يجعلها في معزل عـن الحاجـة ، هذا من نحو ، ومن نحو اخر فـان زوجة صالح تظل دوما بالنسبة اليها في منتهى اللطف ، دون ان تنسى البتة تدليلها .

لكم هتف بها مرارا قائلة : هذا لمينو ... مغتنمة موضوعا عزيزا على قلب رجين ، فتقفز من قطـة صغيرة الى مواضيع اكثر جدية ، تدور دوما حول المواضيع نفسها : مرض الروماتزم الذي تزداد اوجاعه اكثر فأكثر ، والقطة مينو التـي يحلو لها القيام بجولات ليلية .

حسبك ! بخاصة اننا لا نبتغي قطعا : ما جدواها ؟ انها توسخ كل شيء ان هذا ليذكرها ب ..

... كانت زوجة صالح ترهف سمعها الى القصـة صابرة بنفس الاهتمام ، حتى حفظتها عـن ظهر قلب منذ زمن بعيد .

وتمضي رجين في صوت حيادي يخلو من كل غضب تنشر اللوحة : كان لها من العمر اربعة اعوام ، وقد حدث ذلك في غرفة الطعام . ثمة قطة صغيرة ظهـرت بغتـة تحت المنضدة الكبيرة ، لقد كانت متسخة ضاوية ، لا تني تموء مواء ينم عن الخوف .

كانت رجين مختبئة، فألقت اليها خفية بفتات خبز ، وما عتمت ان سمعت صوتا اجش لم تستطع البتة تبين مصدره راح يزمجر :

اجمعي فتاتك يا رجين ، حسب البيت انه افاض عليـك بطعامه . البيت ! لقد ظلت هذه الكلمة تشغل ذهنها ، ولا تبارح مخيلتها ، مهمـا يكن من امر فانهم فسروا لها اللغز: ان الاطفال يأتون من السماء في ملفوفة تشتريها الامهات من السوق. ولشد ما يكثر الملفوف ، بيـد أن الامهات لا يكفين . عندها تمضـي الشرطة في جمع كـل ما تبقى من الملفوف وتضعه فـي بيت يدعـى « الاسعاف العـام » كيما تبيعـه للامهات اللواتي يجئن متأخرات . بيد أن ام رجين لم تجيء قط .

وذات يوم وقـد كانت فريسة لسهد لا يبرح يعاودها ، خرجت وقد بدا الفجر قذرا ، ولم تصف السماء فراحا يلقيان على الشوارع التـي اقفرت تماما من المارة ، كفنا اغبر ادكن تمزقه ريح صرصر من شتـى جوانبـه .

وفي همـة ونشاط ، ورغم انها كانت لا تفتأ تجر ساقها ، راحت رجين تضرب الارض بقدميها فـي خطى نشيطة . انه البرد وهي ... انهما صديقان مخلصان يتمريان في العيـون .

تقدمت رجين ، وفي نظرة طلعـة شبيهة بنظرة قطة تبحث عن قوتها اليومي ، اصطدمت عند ابواب موصدة بأستار مرفوعة ، بصندوق قمامة محكم الاغلاق يدفعه رجـل قميء نصف نائم ، فتوقفت على حين فجأة عند منعطف شارع وقد ساورهـا القلق : ثمة علبة لا شكل لها كانت ملقاة . راحت تحركها بقدمها . ان في داخلها شيئا لينا قليلا ، فانحنت عليها كي تتملاها جيدا .

انه طفل رضيع راقد ، ملفوف بخرق وسخة ! حسرت رجين عن وجهه فبانت لها ملامحه وكأنهـا رسمت بريشة رسام هاو لم يكـن ينسى مع ذلك ـ كما لو شاء ان ينكر اثره ـ ان يطبع على شفتـي الرضيع ابتسامة . راحت رجين تداعب وجهـه ، وتسحـب يده بحرارة ، لقد كانت تلمس بأناملهـا جليـدا .

كان جسم الطفل بالغ الشحوب، ثم عادت الى لمسه من جديد . كلا، انها لم تخطىء البتة . ان ما تراه ليست الا جثة

ظل الطفـل يبتسـم ، ان في ابتسامته شيئا جديدا لم تعه رجين، وقد لا تعيه البتة ان هي مضت

تاركة اياه في مكانه . عندها وفي حركة آلية ، مدفوعة بغريزة لا تقاوم ، كانت تجهلها ، انحنت خفية رشيقة ، وتناولت الجثة فحملتها وانثنت تهرول .

ادفأت رجين غرفتها ، وراحت تغلي الماء ، وتسكبه في اناء ، ثم بدأت تحرر الطفل من اسماله قبل ان تغمسه في الماء الفاتر الذي اختبرته بأصبعها في عناية ، وراحت تدلكه بالصابون المعطر ، ثمة قطعة صابون واحدة اعتادت الاحتفاظ بها لمناسبات كبرى ، ومنديل جميل ، وليفة ناعمة من الاسفنج . راحت تدلك الجسد الصغير بلطف ، محاولة عبثا بعث الروح في الاعضاء الميتة .

وجب عليها بعد ان فرغت من الحمام ، ان تلف الرضيع بلفافة . ولكن بماذا تستعين ؟ مضت وقد ساورها القلق تبحث في ادراجها عن هذا الشيء ، فهتفت على حين غرة : ولكنني واثقة بأني سأعثر عليه ! لا بد ان لديها شيئا ! أليس القميص الذي وهبته لها زوجة صالح ذكرى سمير الصغير ؟

انتزعته من اسفل الدرج حيث تكدست مبعثرة ، صورة قديمة تمثل اسرة صالح ، وسوار من عاج اصفر بمرور الزمن ، ومنديل اخر من الحرير الناعم ، ودريهمات ادخرتها للايام السود ، وفسطان جميل ذو زرقة باهتة ، حيث ترقد ذكرى ، وهو الوحيد المتبقي من صباها .

كان لرجين من العمر ثمانية عشر عاما ، حين كانت تعمل لدى سيدة لها ابن كبير يبلغ العشرين من عمره يدعى سامي . كان مديد القامة ، قويا ، ذا عينين واسعتين كأنهما البحر حين تغمره الشمس .

كان سامي يرامق رجين كثيرا فألفى ان انفها صغير كمنقار عصفور يترقب ما تزقه به امه ، لقد اعجبته شديد الاعجاب ، أما هي فلم تجرؤ قط على تحديد نظرها اليه ، وانه ليعلم ذلك ، فكان يطيب له ان يثير حياءها .

وفي يوم احد ليس كالآحاد ، ارتدت رجين لاول مرة ثوبا ازرق اتى وفق جسدها تماما . كان ذلك حوالي الظهيرة ، وقد انكفأت والدة سامي لتقضي قيلولتها ، وفرغت رجين من غسل الآنية متهيأة للخروج . وعلى حين فجأة ، ودون ان تعرف كيف حدث ذلك الفت نفسها لازة بين الباب وذراعي سامي القويتين ، الذي اجبرها على التحديق الى عينيه .

شع وميض ساخر بيد أنه بالغ الحنان ، فتماوجت الشمس اكثر قوة من السابق . لم تبد رجين حراكا . حسبها انها احست بساقيها ترتخيان ، واعترى رأسها دوار لذيذ اضطرها الى ان تغمض عينيها . ظلت الذراعان القويتان تضغطانها ، وراحت شفتان ملتهبتان تبحثان عن شفتيها . لقد ودت لو أن ذراعيه تحتضانها سجينة مدى الحياة ان تيسر ذلك .

بيد انهما ما عتما بعد لأي ان ارتخى عناقهما قبل ان ند صوت دافىء مملوء ضحكا يدمدم هامسا معتذرا : انه فسطانك ...

وبعد زمن ، فقدت رجين مكانها في البيت ، فذرفت عبرة عاتية ، وهرعت الى الطفل الذي خيل اليها انها سمعته يبكي .

ولكن ، كلا انه لا يبكي ! انه ثمة يرفل في بياض ناصع ، وينعم في هدوء بالغ ، حتى ان البسمة لا تبارح شفتيه ، وسيقال لها كذلك انه لا يحس البرد البتة . بيد ان على رجين مع ذلك ان تلفه بلفافة .

ترى ، كيف يلبسون عادة الطفل ثيابه ؟ بأيهما تبدأ اولا ؟ أبالقميص ام باللفافة ؟

وراحت تبحث شاردة اللب ، رغم انه حدث لها ان شاهدت احيانا امهات يعتنين بأطفالهن بيد انها كانت تزوي رأسها ظنا منها انها لن تغدو يوما اما ، فلماذا اذا نزحم انفسنا بمعلومات لن نفيد منها البتة .

طفل ؟ ليس من شك في انه قد غبر زمن تمنت فيه ان يكون لها طفل ، بخاصة حين كانت ترهف سمعها الى سمير الصغير وهو يضحك . ان له ضحكة اختص بها، تغاير ضحكة سواه . ان له ضحكة اختص بها تتساقط نغماتها كتساقط نغمات اجراس صغيرة معلقة في اعناق الحملان .

بيد انه ، كيما يولد لنا طفل وجب علينا ان نكون اثنين .. رغم ان رجين كانت تدرك كل الادراك انها ستظل ما عاشت وحيدة . لقد فرغت من لف طفلها بقماطه كيفما تيسر ، مضيفة الى القميص طرحتها التي اعتادت وضعها ايام الاحد . وبعد ان عثرت على سلة الغسيل ادخلت فيها مبذلتها عوضا عن الفراش ، بعد ان اعدتها قبل ان ترقد الطفل فيها .

بقي لديها لحسن الحظ قدح حليب فحسب ، راحت تعده . وبملعقة صغيرة مضت تفتح شفتي الصغير الزرقاوين محاولة سكب جرعات صغيرة عنيدة ، اخذت تطفح فوق الخدين . عندها راودت ذهنها على حين فجأة ان الطفل لا يحمل البتة اسما .

« سمير » انه اول اسم خطر في ذهنها ، بيد أنها تخلت عنه ، لانها ابت ان يقبل القسمة ، فاختارت « بسمة » ثم بعد ان اطالت التأمل في طفلها فوجئت هي نفسها ببسمة تند منها لاول مرة منذ امد طويل جدا . حركت رأسها خجلة ، وتلفتت بخوف الى ما حولها كيما تطمئن الى ان احدا لا يرقبها .

كادت الساعة تدق السابعة والنصف ! لقد حان وقت الذهاب، ولكن أليس عليها ان تهدهد الطفل؟

ند من اعمق اعماق ذاكرتها بغتة لحن ، انه اللحن الوحيد الذي تعيه، فتتابعت كلماته في البدء خجلى

مشوهة ، ثم ما عتمت ان استقرت في نغم حزين مات اخيرا في دمعة استقبلتها شفتاها المتعبتان . ندت صورة ففمرت الغرفة وفرضت نفسها بحتمية : انها صورتها حين كانت طفلة ، ربما كان لها من العمر خمسة اعوام ، حين ذرفت دموعها في الظلمة في خفوت ، فدنا منها احدهم في خطى صامتة . وفي لهجة شاءت ان تبدو قاسية، طرح عليها صوت بالغ الحنان سؤالا :

ترى من الباكي هناك ؟

لقد كان الصوت جميلا ، مما جرأ رجين على رفع رأسها :

ان ثمة سيدة قرب السرير ، ذات شعر يلمع في الظلام ، بدت في عينيها ملامح الرحمة ... صرخت رجين فرحة مشرقة الوجه:

انت !. ملاك !

قالت في يسر ، انا المدرسة الجديدة .

ماذا تعنين ؟

انا أم الجميع .

أم ! وصفقت رجين بيديها . ألانت التي في ميسورك شرائي ؟.

لم تجب السيدة الحسناء قط ، بل مضت تعانق رجين وتطوقها ، وهي تدمدم من اجلها في صوت خافت ، انها الاغنية التي همت رجين بأن تعيدها .

في ذياك المساء ، وللمرة الاولى، التقت رجين بأم .

دنت الساعة الثامنة . اين تراها تدع « بسمة » ؟ هل سترضى الجارة عفيفة ان تبقيه لديها هنيهة؟

فلتجرب رجين حظها .

حركت عفيفة رأسها حزينة وفكرت :

يا لها من تعيسة !

لقد اضاعت عقلها تماما !

شاءت ان تشرح لها بأن هذا الطفل ميت ، بيد أن الوميض القاسي العنيد الذي شع من عيني رجين سمرها واثار في نفسها الخوف ، وما لبثت ان جازفت فتناولت الطفل مؤملة العثور على حل ، فوضعته في فرجة نافذة فتحتها على مصراعيها ، معرضة اياه للبرد . كانت تردد بينها وبين نفسها وهي منهمكة فيما بعد بأعمالها :

لنمض ، ان كل شيء سينتهي على احسن حال ، اذ ليس ثمة صعوبة كبرى يثيرها هوى امرأة عانس مريضة !.

وبعد قليل ، وحين تعود رجين فسيكون في ميسورها ان تشرح لها الحال في هدوء . وستنتهي جيدا الى اعادة الفقيرة المجنونة الى صوابها . لقد وجب عليها ان تؤمن بالامر الواقع .

مهما يكن من امر فليس في الوسع الاحتفاظ بجثة حتى النهاية !

ثم ... لو ان الهوى تملكها ثانية ، افلا تجد جثة سواها ؟

تابعت رجين طريقها ... ثمة الصبية تانتظارها ، ستنهال عليها الاسئلة كثيفة ثم عنيفة : هو ! هو ! رجين المجنونة ! رجين الوحش !.

انها لا تجيبهم البتة . فصمت الصبية مرتبكين ، اذ خالوا ان فخا نصب لهم ، فمضوا يضاعفون صراخهم ، وظلت رجين لا تجيبهم البتة .

اخذ الصراخ يشتد صاخبا مجنونا ، فيتحطم فوق صمت ثقيل بشيء لا تدري ما هو ، أثار على حين فجأة الذعر في افئدة الصغار .

خرج السيد حمدي من داره ، فلم يفر الصبية :

لقد بدوا وكأنهم يمضون ميممين وجوههم شطر المدرسة ، يرين عليهم هدوء بالغ ، وها هي ذي رجين نائية . وعلى حين غرة لاحظ السيد حمدي انها لا تجر قدمها كالعادة .

وبعد لأي امت رجين مبكرة اكثر مما اعتادت منزل عفيفة ، وراحت تقرع الباب . كان قلبها يخفق كما يخفق قلب صبية تبادر خفية الى اول لقاء . انها لا تدري فيم ترتجف يداها . وحين فتحت لها عفيفة الباب لم تتح لها الوقت للشروع في الحديث ، فطلبت اليها في صوت صغير بدا وكأنه ابتهال :

ولدي ؟... هل اتعبك كثيرا ؟ الا يبرح راقدا ؟

ثم ، وفي صوت اثار بغتة الخوف في قلب عفيفة صاحت :

ولدي ؟ اين تراه اذا ؟

حبست عفيفة ضحكة مريرة . كيف تراها تشرح لها ؟

لقد خانتها شجاعتها فجأة ، ودون ان تنبس ببنت شفة ، تركتها تلج الفرفة ولم تلحق بها .

كلا ! ان قلبها لا يطاوعها اذ ترى هذا المشهد : مريضة تضم الى صدرها جثة !

قررت عفيفة اخيرا ان تلحق برجين في الفرفة ، وحين بلغت العتبة ظلت مسمرة لا تبرحها ، وقد تملكها الدهش :

ثمة في صدر الغرفة ، عند فرجة النافذة شعاع شمس يداعب طفلا يبكي ويبتسم . اخذته امرأة بين ذراعيها .. انها رجين التي مضت تبتسم بدورها وتذرف دموعا تنساب على خديها فتذكرت عفيفة على حين فجأة انها لم ترها قط تذرف دمعة . ثمة شعاع شمس فوق وجهها ...

اشعة جمة ...

طرحت رجين سؤالا :

أليس « بسمتي » جميلا ؟ ..

دمشق — سعد صائب

مـوت أمـي

« أمـي ماتـت » !!
وأحدق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنـا
يا قسـوة عين لا تبكي للناس اذا مات حبيب
« أمـي ماتـت » !!
لكـن حمائـم جارتنـا تمضي عنـي ..
مثنـى .. مثنـى ..
وأنـا أتحسـى كلمـات ذابلـة الوجـه بلا معنـى :
« ماتـت .. متنا » !!
« أمـي ماتـت »
ويتمتـم شيـخ ثلجـي الاحساس :
« أجـل يرحمهـا الله »
يا شيخ تألم لي صعـد حتى من شفتيك الآه
ما أقسـى قلبـك ..ما أقسـاه !!

ويسير النعش على أعناق الناس الى الوادي الآخر
وأنـا أتساءل :
ما قيمة أن أحيا .. أو يحيا الآخر ؟
هـذا غدنـا :
أن يحملنـا محمولـون
أن يبكينـا مبكيـون
أن نعبر هذا الكون الى كون غامض
المؤمن فينا .. واللاعـن .. والقانع.. والقلق الرافض

قالوا للنـاس :
« المؤمـن يحيا خلف جبال الموت هناك بلا موت »
وأنـا أتساءل :
ولماذا لا نحيـا دنيانـا الحلوة ؟
ما حكمة أن نحصد من حقل العالم أعناق النبت ؟
النطعـم آلاف الديدان ؟
ما أتفهنـا !!
أليمسي العالم تحت دثار الليل القابض في صمت ؟
ان كـان ..
فصكا وقعناه بكل دمـاء القلب على « عدم البوح »
« صمتـا » « صمتـا »
هذا في غدنـا كـل نشيـد الانشاد
فلترفـع سكيـن الذبـح
فلترفـع سكيـن الذبـح
ما دمنا قد وقعنا « مختارين » على عـدم البوح

ونشارف مقبـرة الاسره
هاويـة الحصاد الحاضنة لكل براعيم الخضره
فأدمـدم فـي صمت مـر :
يا أبتي قـم رحب بالضيف القادم من وادي العدم
أم أنك أنت الآخر تحيا خلف متاهـات العدم ؟
ان كنت سمعت ؟ فقم رحب بالضيف القادم في كرم
قم يا أبتي «أرجوك» واشعل مسرجتك
رقرق في الحفرة بعض تهاويل الضوء
بعض الالوان على جدران القبو المر المنكفىء
فأنا يخنقني ان تحيا أمي في ليل منطفىء !!
تسمعني ؟ أم ما زلت رجاما بين رجامات أخرى ؟
يا أبتـي هـم قالـوا :
« للموتى ان عبروا أخرى »
أنـا لا أنفـى
حاشا للفاني ان ينفى حتى الاشياء المنقيه
لكني أنشـد ان اسمع يا أبتي صوتك مهموسا
حتى يا أبتـي مهموسـا
يهمـي عطـرا ..
ينبئني أنك سوف تمزق أكفان عروسك
وبأنك سوف تسل السيف لتدفع عنها الاشباح
كـل الاشباح
لتحلق معكم يا أبتي روحا هائمة في الارواح
لكن أبي « لا ينبس حتى بالرفض !!

ونعود مع الشفـق الفـارب
أطـلال جدار منهـار
ضيعنا الكنز وعدنـا نبكي كالاطفـال
الافـق بليـد
والليل الجاثم فوق الارض وفي أحنائي ألف بليد
يا عجبا لـي »
اني أبدو في زحمة كل الناس على الدرب وحيـد
في قلبي الذابل من همس الظلمات القائمة فحيح
وصدى من هول المأساة ذبيـح
وتلوح نوافذنا غرقى في ليـل مصلوب اقتم
ليل تتلوى فيه بلا نبض أبدا روح المأتـم
لكـن نوافذ بيـت الجارات هناك
ترقـص ذهلـى
بستائرهن البيضاء اللاعبة على صدر الريح
فأكـاد أصيـح :
ياكل ستائرهن ألا تبصرن ستائرنا سوداء ؟
بعضا مـن حزن ..
فالبيت المطرق في حضن المأساة النازفـة جريح
هـل نرقص في أوج المأساة ؟
لكـن الريـح .. وعرس الريـح ..
ونوافـذ بيت الجارات هنـاك ..
ترقص ذهلـى ..
وكأن علينا قد كتبت مأساة المـوت
وكأن عليهم ان يحيوا ليزفوا أعراس الموت
ياكـل نوافـذ قريتنـا
ياكل نوافـذ عالمنـا
أبدا لن تفتح نافـذة بعد الصيحة !!
الكـل يبـاب
الكـل يبـاب

القاهرة

محمد احمد العزب

حسن حسني عبدالوهاب

بقلم هلال ناجي

* * *

هو حسن حسني بن صالح بن عبدالوهاب نسبة الى جده عبد الوهاب بن يوسف الصمادحي التجيبي الذي كان يدير الحرس الاهلي للبلاد (وهم الحوانب) ويرأس التشريفات في مدة البايات الحسينيين من عهد الباي محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي الى أيام المشير احمد باي الاول .

وتقلب بعده ابنه والد المترجم له السيد صالح بن عبدالوهاب في عدة وظائف اذ انه تعلم العربية بجامع الزيتونة ودرس بعد ذلك اللغة الفرنسية بمكتب الرهبان حتى اتقنها جيدا ، فأضافه الفريق حسين وزير الخارجية اليه ، وصار يصاحبه كمترجم في السفارات المتنقلة التي كانت ترسلها الدولة التونسية الى اوروبا كلما حصل خلاف مع الممالك الافرنجية (ايطاليا قبل الوحدة وفرنسا وانكلترا وغيرها) في عصر كانت رحلة التونسيين الى تلك البلاد قليلة جدا – من ١٨٦٩ الى ١٨٨٠ وكان والد المترجم له مولعا بفن التاريخ وله تاليف في اخبار مملكة المغرب الاقصى لم يطبع بعده .

وقد تقلب بعد الحماية في جملة وظائف منها عمل الاعراض (قابس) والمهدية ، وتوفي آخر سنة ١٩٠٤ .

ولد السيد حسن حسني في آخر شعبان ١٣٠١هـ (٢١ يونية ١٨٨٤) بنهج عبدالوهاب رقم ٢٥ ووالدته (حنيفة بنت علي بن مصطفى آغة قيصرلي) كان ابوها اكبر اعوان الوزير خيرالدين باشا .

واول دراسته في كتاب بنهج سيدي الموحد ، بين نهج الوادي ونهج بو خريص ، حسب العادة المتبعة حينئذ لصغار التونسيين ، ثم تحول الى المدرسة الابتدائية بالمهدية حيث تلقى هناك حفظ الربع الاخير من القرآن الكريم ، كما ابتدأ في تعلم اللغة الفرنسية .

ولما انتقل والده من المهدية الى تونس دخل اول مكتب فرنسي لائكي بالحاضرة (نهج السويد) ونال شهادة العلوم الابتدائية ١٨٩٩ والتحق (بالمدرسة الصادقية) ثم قصد باريس وانتظم في سلك تلاميذ مدرسة العلوم السياسية ، وتابع تعليمه بها ، ومن اساتذته بها « ده منتاي » وفي الاثناء كان يحضر جميع محاضرات الحكيم « شاركو » في تحليل الاخلاق والنحائز والطبائع .

ولما توفي والده آخر سنة ١٩٠٤ عاد الى تونس وانخرط بعد في سلك موظفي « ادارة الفلاحة والتجارة » في قسم املاك الدولة آخر سنة ١٩٠٥ ، وبعد خمس سنين عين رئيسا لادارة غابة الزياتين للشمال التونسي اي في سنة ١٩١٠ على وجه التحقيق .

وفي سنة ١٩١٦ التحق بادارة (المصالح الاقتصادية بصفة رئيس قسم ثم فارقها لرئاسة « خزانة المحفوظات التونسية ») في سنة ١٩٢٠ وقد استفاد كثيرا من العمل الاخير الذي سمح له بالاطلاع على مجرى احداث التاريخ التونسي منذ الفتح التركي وبعده ولا يخفى ان خزنة المكاتيب الدولية – كما كانت تسمى – هي من محاسن مؤسسات الوزير خير الدين حين مباشرته لشؤون الدولة التونسية – واهم عمل قام به المترجم له هناك هو فهرسة محتوياتها في جذاذات محفوظة في صندوق خاص وهو المعمول به الى الان ولم يكن ذلك موجودا بها .

وفي سنة ١٩٢٥ عين واليا على المثاليث ، ومقر الادارة بجبنيانه ، وكانت تلك الناحية تابعة لولاية صفاقس ولم يعتن بمصالحها منذ احقاب توالت عليها فسعى جهده في اقرار اهاليها بالارض لتعميرها وبايجاد عدة مكاتب ابتدائية واحداث طرقات معبدة وتزويد القرى بالماء الصالح للشرب وتنوير بعضها ليلا .

وفي آخر سنة ١٩٢٨ نقل واليا الى المهدية الفاطمية فاجتهد في نشر التعليم في القرى والمداشر حتى كان يلقي في كل اسبوع محاضرات في التاريخ الاسلامي وبخاصة في احداث تلك الجهة في محل ناديها ونادي الشبيبة واوقف كتبا كثيرة على مكتبات المدينة الفاطمية .

وفي سنة ١٩٣٥ سمي واليا على الوطن القبلي «نابل وناحيتها » فاهتم بمصالحها العمومية واوقف كذلك من الكتب العربية كثيرا على مركز الولاية وعلى القرى الكبيرة والصغيرة .

وفي سنة ١٩٣٩ عاد للحضرة التونسية بصفة وكيل « للادارة المحلية والجهوية » . وفي اثناء مباشرته لهذا المنصب احيل على التقاعد لبلوغه السن القانونية بعد اربع وثلاثين عاما من العمل المنهك – لكن الادارة المركزية ابت الا تعيينه رئيسا « لمصلحة الاوقاف » فاجتهد في الذب عن مصالحها ومنع ايدي الطمع من الامتداد الى املاك الاوقاف واراضيها الخصبة .

وبمجرد انتهاء الحرب الكبرى الثانية في البلاد التونسية انتخب وزيرا « للقلم » وهو وظيف يشمل ادارة الشؤون الداخلية للبلاد والقيام بتحرير المهم من المكاتيب الدولية ومخاطبة ملوك الخارج ، وذلك في ٣ ماي سنة ١٩٤٣ فشغل هذا المنصب مع آخر البايات الحسينيين محمد الامين .

وتخلى عن هذا المنصب نهائيا في شهر تموز ١٩٤٧ ومن ذلك الحين انقطع عن الاشغال الادارية واقبل على العمل في مؤلفه الكبير « كتاب العمر » والسفر الى الاقطار الشرقية والغربية .

ولما نالت البلاد التونسية الاستقلال وفارق الموظفون

الفرنسيون المصالح الادارية دعته الحكومة التونسية الجديدة لرئاسة « المعهد القومي للآثار والفنون » ، في سنة ١٩٥٧ فباشر هذه المهمة بجد نادر مدة خمس سنوات متوالية ، وقد وفق الى نقل مصلحة الآثار من محلها القديم (سباط سوق الفلقة) الى (دار حسين) التي كانت مقرا لقائد الجيش الفرنسي ولاركان حربه وبعد ترميم الدار كما يجب اتخذ بقسمها الاعلى مكاتب الادارة وبقسمها الاسفل متحفا للفنون الاسلامية ، ولم يكن لهذه الفنون ادنى حظ بين الآثار التونسية .

وقد اسس خلال مدة رئاسته خمسة متاحف منها اربعة للاعلاق الاسلامية وهي متحف علي بورقيبة في رباط المنستير ومتحف اسد بن الفرات برباط سوسة ، ومتحف ابراهيم بن الاغلب في القيروان ، ومتحف دار حسين الاسلامي المتقدم الذكر — ثم مستودع الآثار الكلاسيكية بقرطاجنة في بيت أثري لاحد اعيان الرومان .

ولقد اهدى المترجم له للمتاحف العربية السالفة الذكر كل ما جمعه لنفسه منذ الصغر من الاعلاق النفيسة والتحف الاسلامية النادرة سواء كانت مقتناة من تونس او مشتراة من المشرق ومن عواصم اوروبا وهي صورة رائعة من صور الآثار .

وفي تلك المدة نشر في مختلف الجرائد والمجلات فصولا كثيرة كما حرض الباحثين عن الآثار على اخراج ما كتبوه بالعربية والفرنسية وقدم لمصنفاتهم بمقدمات مناسبة وهي نحو السبعة مؤلفات في شتى المواضيع الاثرية .

حياته العلميــة

شارك المترجم له في غالب «مؤتمرات المستشرقين» ابتداء من عام ١٩٠٥ بعاصمة الجزائر حيث قدم بحثا عن « الاستيلاء العربي على صقلية » وتعرف بثلة من العلماء المشاركين عربا كانوا او افرنجا منهم « محمد فريد بك » رئيس الحزب الوطني المصري اذ ذاك والشيخ المرحوم « عبد العزيز شاويش » و « جورج براون » الانكليزي وكذا المستر « بيمين » و « آمد روز » و « فولارس » و « نلدكي » الالماني و « كوديرا » و « ريبيرا » و «ميقال آسين بالاثيوس » وثلاثتهم من اسبانيا و « لويس ماسينيون » و « وليم مرسي » والمرحوم « محمد بن ابي الشنب » وغيرهم كثير جدا . وامتدت علاقته بجميعهم بعد ذلك .

وفي سنة ١٩٠٨ شارك في مؤتمر كبنهاكن عاصمة الدنيمارك ومن وجوه العلماء الذين تعرف بهم هناك البارون « ماكس اوبنهائم » الالماني والاستاذ « كولد زيهر » العالم النمساوي المشهور والاب « لا منس » والاب « لويس شيخو » اليسوعيين . وكان قد اعد بحثا بالفرنسية عن العناصر التي يتالف منها سكان تونس طبع في سنة ١٩١٧ .

وفي ١٩٢٢ شارك في مؤتمر باريس للمستشرقين الفرنسيين ثم المؤتمر المنعقد برباط الفتح بالمغرب سنة ١٩٢٧ ثم مؤتمرات كمبريدج بانكلترا واسطنبول ومونيخ في المانيا وفي جميعها كان ممثلا للحكومة التونسية كما حضر الندوات العلمية التي انعقدت بالبندقية وكذا ملتقى فلورنسا بايطاليا للتقارب بين المدنيات والاديان وغير ذلك مما يطول تعداده .

كما ناب عن الحكومة التونسية في « مؤتمر الموسيقى الشرقية » المنعقد بالقاهرة في نيسان ١٩٣٢ .

وقد عين عضوا دائما في مجمع اللغة العربية عند تأسيسه آخر سنة ١٩٣٢ وهو اليوم آخر من بقي من الاعضاء الاولين للمجمع ، وكانوا في البداية عشرين عضوا لا غير عشرة من المصريين وخمسة من الشرقيين وخمسة من المستشرقين ، وقد شارك بقدر الاستطاعة في الابحاث والمناقشات الدائرة في المجمع منذ تأسيسه ، وهو يحسن من اللغات عدا العربية الفرنسية وقليلا من الايطالية والتركية .

اما عنايته بالعلم وبث وسائله داخل البلاد التونسية فقد قام بتدريس التاريخ العام وخاصة التاريخ التونسي في المدرسة الخلدونية من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩٢٤ بعد المرحوم البشير صفر وكذا في المدرسة العليا للغة والآداب العربية بسوق العطارين (من سنة ١٩١٣ الى آخر ١٩٢٤) .

كما منحته جامعة العلوم المصرية لقب الدكتوراه الفخرية في سنة ١٩٥٠ وقد انتخب عضوا مشاركا في المجمع الفرنسي للنقائش والآداب منذ سنة ١٩٣٩ وكذا في المعهد المصري وعضوا مراسلا للمعهد التاريخي الاسباني منذ اربعين عاما — وعضوا في كل من المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه وكذا في المجمع العلمي العراقي في بغداد وغير ذلك .

طاف المترجم له في سائر اقطار أوروبا ، كما زار جميع اقطار شمال افريقية من المحيط الاطلنطي الى السويس وكذا غالب بلاد الشرق الادنى ، وحج ثلاث حجات اولها سنة ١٩٣٥ وآخرها سنة ١٩٤٥ .

مؤلفاتــه

اما مؤلفاته باللغة العربية فهي : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق تونس ١٩١٢ .

— خلاصة تاريخ تونس — طبعة اولى تونس ١٩١٨ — وثانية ١٩٣٠ — وثالثة بتونس سنة ١٩٥٣ .

— المنتخب المدرسي من الادب التونسي ط اولى ١٩٠٨ بتونس ، وثانية في المطبعة الاميرية المصرية ١٩٤٤

— الارشاد الى قواعد الاقتصاد — طبعة تونس ١٩١٩

— شهيرات التونسيات — تونس ط اولى ١٩٣٤ — وثانية بتونس ١٩٦٦ .

— الامام المازري — تونس ١٩٥٤ .

— ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية (جزءان) ط تونس ١٩٦٥ .

— ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية

اشعار محزونة

لآل المعلوف

قل ((للرياض)) وراد حزنك تطلع ... منذا رأى الريحان كيف يضوع
للشجو ازهار كأن عبيرها ... حمل الشميم الى قلوب تدمع
تبقى الحشاشة حرقتها لوعة ... من غيبة المحبوب منذ يودع
لهفي على الام التي أنسالها ... ملأت ربى لبنان شعرا يمرع
خذني لزحلة حيث ((فوزي)) سادر ... طي الرخام وروحه تترجع
بالامس كنت اجيل ذكرى شعره ... فوق الاثير يحن فيه المسمع
لو أمه وعت الحديث لرجعت ... أشعاره العليا بروح تنزع
ما حال موت دون انشاد لها ... فهي التي منها الشعور الابدع
أم العباقر ، ما ذهبت من الدنى ... لكن حواك من المعاني ارفع
طوفي السماء كما أطاف بنجمها ... ((فوزي)) وقولي اي قصد اروع
جاء ((الشفيق)) الى الشآم يرودها ... فزواه عني حاسد متوضع
من (عبقر) قد كنت أرصد قربه ... فعلام أبعده اللئيم الاسفع
من غيرنا يأتيه بالشعر الذي ... يروي علاه وبالتلاقي يطمع
قد كنت في يفع السنين ملازما ... للمجمع العلمي ، فكري أيفع
وأبوه كالملك العظيم ، وباسمه ... ((اسكندر)) وهو الخطيب المصقع
فرأيت فيه العلم في نجم الهدى ... أدب الشآم برعيه يترعرع
اني لأحسبه بفردوس العلى ... هش اللقاء الى فتاة تهرع
كانت له زوجا كريمة قومها ... فأتته في الجنات خودا تسطع

دمشق — زكي المحاسني

(جزء ثاني) ط تونس ١٩٦٦ .

هذا عدا ما حققه من المخطوطات القيمة ونشرها وهي :

ــ رسائل الانتقاد (مقامات في النقد الادبي) لمحمد بن شرف القيراوني طبع دمشق ١٩١٢ .

ــ ملقى السبيل (في الوعظ والحكم) لابي العلاء المعري ــ دمشق ١٩١٢ .

الخطيب الاندلسي طبع بصقلية سنة ١٩١٠ .

ــ اعمال الاعلام (قسم تاريخ افريقية وصقلية) لابن

ــ وصف افريقية والاندلس لابن فضل الله العمري طبع تونس ١٩٢٠ .

ــ كتاب يفعول (بحث لغوي) للصاغاني ــ طبع تونس ١٩٢٤ .

ــ التبصر بالتجارة للجاحظ ــ ط اولى بدمشق ١٩٣٣ ــ وثانية بمصر ١٩٣٥ ــ وثالثة ببيروت ١٩٦٦ .

ــ الجمانة في ازالة الرطانة (في اللهجة الاندلسية) لمجهول ــ ط المعهد العلمي بمصر .

ــ رحلة التجاني (في البلاد التونسية وطرابلس) لعبد الله التجاني ــ ط تونس ١٩٥٨ .

هذا عدا العديد من مؤلفاته وابحاثه العلمية القيمة المنشورة باللغة الفرنسية .

في صلامبو بقرطاجنة المدينة الموغلة عبر التاريخ وفي دار تطل على بحيرتها الصغيرة الساجية وتحيط بها حديقة غناء تختلط فيها السقسقة بالزقزقة ، يقيم علامة تونس وشيخ مؤرخيها السيد حسن حسني عبد الوهاب ، وهو برغم كبر أعتوره ومرض تعاور عليه ما فتأ يقطع كل اوقات يقظته قارئا كاتبا ، مدققا محققا ، مجيبا على رسائل سائليه الكثار ومحدثا زواره القلائل .

منذ عام وانا اقصده كل مساء احد فالقى في بشاشة وجهه وروحه العلمية السمحة ابا واخا وصديقا ، فاذا تشعب بنا الحديث عاد الى ذهني وتجسدت امامي طيوف الخالدين من كتاب العرب في عصورهم الذهبية الزاهرة ، فازداد به اعجابا ويزداد بي تعلقا .

ثم تقطع علينا ــ علية هانم ــ رفيقة حياته الخالدة حديثنا المسترسل بابريق شايها المعطار فتعيدنا بلطفها وكرمها الى عالم المادة .. واغادر الدار وفي ذهني اصداء من حديثه الماتع وشذى من خلقه الرائع ..

تونس — هلال ناجي

قصة

واخيراً جاء الفرج

بقلم خليل خلايلي

عندما توجهت الى مكان عملي الجديد، لم أكن املك اكثر من خمس عشرة ليرة سورية كنت حريصا عليها كل الحرص ، لعلمي انني لن استطيع ان انال غيرها من النقود الا بعد مدة ليست باليسيرة ، ولا بد لها ان تكفيني طيلة اسبوع كامل ، ريثما اعود الى اهلي القاطنين في مخيم اللاجئين ليتدبروا لي غيرها .

كنت آنذاك قد عينت معلما في مدرسة صغيرة للايتام ، بعد حصولي على شهادة الكفاءة .. اما المدرسة فكانت مؤلفة من خمسة صفوف صغيرة تضم بين جدرانها ما يزيد على مائة طالب من صغار الايتام ، تعولهم المدرسة وتعلمهم على نفقة جمعية خيرية .

وصلت المدرسة ضحى اليوم الاول من ايام الاسبوع ، وتسلمت عملي بين زملاء رايتهم في حياتي لاول مرة ، ولذا لم يكن من اليسير علي ان اتكيف معهم بسرعة لكوني غريبا عن البلدة التي نعمل فيها معا .

كانوا جميعا من الاساتذة القدماء الذين سبقوني الى العمل في المدرسة بعامين او بعام واحد على الاقل ، وهكذا رايتهم يستقبلونني بفتور ويلاقونني بلا مبالاة كانت مقيتة بالنسبة لي ، حتى تخيلت ان عملي الجديد غول يريد ان يبتلعني مرة واحدة . ولكن ما حيلتي ؟ وانا لم احصل على هذا العمل الا بعد جهد وكد ، وسهر متواصل لعام كامل، استطعت في نهايته الحصول على شهادة الكفاءة ، فلأتذرع بالصبر اذن ما دمت مضطرا للعمل لاعيل والدي العجوزين واخوين لي صغيرين .

ولذا كنت اثابر على اعطاء دروسي بهمة ونشاط صابرا على جفاء زملائي بمضض لا عهد لي به من قبل ، وكلما فترت همتي او نفد صبري كنت اتذكر الافواه الاربعة التي تنتظرني بفارغ الصبر .

كان اول ما لفت نظري في المدرسة هو امين سرها ، شاب في الثلاثين من العمر ، اسمر اللون ، طويل القامة نحيفها ، سليط اللسان قوي الشخصية ، يستمد من قدمه في المدرسة ومن قرابته لرئيس الجمعية الخيرية نفوذا لا حد له ، حتى كان يفرض شخصيته على المعلمين وعلى مدير المدرسة بالذات ، اما الطلاب فكانوا يرتجفون خوفا منه كلما دخل الى صف من صفوفهم ، وكثيرا ما كان يدخل الى الصفوف لتأدية عمله الذي كان جله عقاب الطلاب المذنبين الذين كانوا يعاقبون بقسوة مفرطة تستدر العطف وتستثير الشفقة في اقسى قلوب بني البشر ، لهذا كنت كثيرا ما ألمح الذعر يطفح على وجوههم الطفلية الصغيرة كلما نظروا الى هذا الانسان الذي كان مخيفا حقا ، فهو دائم العبوس ، جهم الاسارير ، غليظ الكلام فظ المعاملة ، مما جعلني اكرهه كراهية لا حد لها واتمنى لو انتقل الى مدرسة ثانية لاتخلص من رؤية هذا الوحش الذي يختبىء في اهاب انسان .

مرت الايام الخمسة ببطء السلحفاة ، حتى كدت احسب ان الاسبوع ليس بمنته ، وفي مساء الاربعاء ، جاءني امين السر هذا الى الصف ، ودخل دون استئذان ودون ان يقرع الباب ، فهو في الحقيقة لم يتعود مثل تلك العادة في حياته قط ، وقف الطلاب احتراما له وكنت جالسا خلف المنصة اشرح الدرس ، تقدم مني فوقفت ورحبت به ، فانحنى نحوي وعلى وجهه ابتسامة ثعلبية وقال بصوت خافت:

— استاذ (منير) هل معك نقود ؟

— نعم .

— هل لك ان تقرضني بعضها ؟

— اهلا وسهلا

قلتها بدون تفكير ، وذهبت الى حقيبة كتبي حيث اضع نقودي وتلمستها من اطراف الحقيبة وجمعتها بكاملها ، اربع ليرات سورية هي كل ما تبقى معي من الخمس عشرة ليرة التي احضرتها معي ، وكنت قد احتفظت بها لادفع منها اجرة السيارة التي ستقلني الى حيث يقطن اهلي في اخر الاسبوع، ولكن الخجل او قل الخوف من هذا الانسان دفعني الى جمعها كلها واعطائها له دون تردد .

عندما أويت الى فراشي في تلك الليلة لم استطع ان انام ، بل بت مسهدا افكر في غدي وبالوسيلة التي ستنقذني من ورطتي تلك ، التي لم احسب لها حسابا عندما اعطيته ما تبقى معي من النقود .

استيقظت في صباح الخميس متعبا مكدودا من السهر والارق ، ودخلت الصف واجما مهموما ، وغاضت الابتسامة التي تعود الطلاب ان يروها على وجهي . انتهى الدوام، وقرع الجرس في الثانية عشرة الا الربع ، فانصرفنا من عملنا ، فخرجت من الصف متأبطا حقيبة كتبي التي لم تعد عندئذ تساوي شيئا بعد ان افتقدت كنزها الصغير .

كان موقف الباص لا يبعد عن المدرسة اكثر من كيلومتر واحد تقريبا ، ولما لم يكن لي بد من الذهاب الى اهلي ، توجهت نحوه وانا اكاد اتقطع من الالم ، فزملائي ذهبوا الى

في ذكرى والدي العاشرة

•

ذكراك ملء الدهر والزمن ... أبتي أنا لولاك لم أكن
من قاد خطوي في الحياة فتى ... والشعر من لولاك علمني !؟
وخيالك المرسوم في نظري ... لا لست أنساه الى الكفن ..
عشر من السنوات قد عبرت ... فكأن موتك بعد لم يحن !..
كم طيفك الميمون راودني ... في الظن كم في الحلم كلمني..
ذكراك باقية تلازمني ... وبرغم ان الجسم منك فني !
تلك الطروس ملأتها عبرا ... وتركتها ذخرا على الزمن
هذي التصانيف التي كتبت ... بتبحر في البحث مختزن
أسفي على ذاك الدماغ على ... وهج الذكاء وحكمة الفطن
ويد تشع ثقافة وهوى ... لم تعرف الشكوى من الوهن
أبتي .. صرخت وعاد لي أبدا ... صوتي بلا جدوى فواحزني!
تبا لدهر كله محن ... من عاش في الدنيا بلا محن؟..
أو شاع ذاك القبر علمك يا ... أبتي وهل هو صالح السكن ؟
للعالم المخلوق منطلقا ... ليت الضريح على الضلوع بني!
ذاك التراب طفقت ألثمه ... وضممته بأسى فوا شجني...
وبك الضريح يتيه مفتخرا ... وبكنز علمك فاز فهو غني !
ذكراك في قلبي تفجعني ... أو يمضي يوم لن يذكرني
ذكراك مشرقة وخالدة ... يا خير من باهى به وطني !!

زحلة ـ لبنان — رياض معلوف

بيوتهم الواحد تلو الاخر ، ولم يبق منهم احد استطيع ان اطلب منه شيئا من النقود ، والحقيقة انهم لو ظلوا في المدرسة فانني افضل الموت على الطلب منهم ، وانا لم اعرفهم بعد معرفة جيدة ولم اندمج بهم ، فكيف اسمح لنفسي ان اتعرى امامهم بمثل هذه العجلة .

ولكن ما العمل ؟

الان سأصل الى الباص المتلىء بالمعلمين والمعلمات العائدين الى بيوتهم لقضاء عطلة اخر الاسبوع بين اهلهم وذويهم في المدينة ، وسيأتي الجابي ليقول لي : « اسمح لي يا استاذ » ماذا يمكنني ان اقول له ؟ أأقول له : انني لا املك نقودا ؟ الا اصبح اضحوكة الزملاء الغرباء عني؟ الا يهزأ بي الجابي ويصرخ بملء صوته طالبا من السائق ان يوقف سيارته لينزلني منها .

وغامت الدنيا في عيني ، واحسست بوهن في ركبتي، فوددت لو اقعد على قارعة الطريق لاستريح، وتمنيت لو ان صاعقة من السماء تنقض علي فتحرقني مكاني وقبل وصولي الى السيارة ، لتخلصني من هذه الازمة التي لا اجد لها حلا .

تحاملت على نفسي ، وتابعت طريقي بخطا بطيئة ، ورأسي تكاد تنفجر من جراء الافكار السوداء التي بدأت تزدحم في مخيلتي ، فاشتد خفقان قلبي ، واحسست بأنني اكاد ان اختنق ، وبدت لي الدنيا مظلمة كئيبة ، بل بدت اشد عبوسا واظلاما من وجه امين السر القبيح .

وفيما انا على هذه الحال من اللهم والضيق ، اذا بصوت يأتيني من بعيد ، حسبته لاول وهلة وكأنه يأتي من عالم اخر ، او خيل الي انني في حلم مزعج رهيب .

ـ استاذ ـ استاذ .

توقفت بدون ارادة مني ، ونظرت الى الخلف ، فاذا بطفل صغير من تلاميذي يركض في اتجاهي ، نظرت اليه من خلال الضباب الذي يملأ عيني ، كان طفلا جميلا في عمر الورود ، تلمع في وجهه عينان واسعتان ، وتطفح على محياه علائم البشر والمرح ، فيبدو كبرعم ورد يريد ان يتفتح ، او كملاك صغير.

انتظرت قليلا حتى وصلني ، كان يلهث من شدة التعب ، وعندما وصل امتدت يده الصغيرة نحوي، وتطلع الي بعينيه الجميلتين ، والدم يكاد يتفجر من بشرته الفضة وقال بحياء جم :

« استاذ خذ هذه الليرات الثلاث واشتر لي قلم حبر من المدينة » .

دمشق — خليل خلايلي

انطون لورنس - عارف حجازي

الاب اسطفان يوسف سالم

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - انطـون لورنـس

ولد في بيت المقدس عام ١٨٧٨ وانهى دراسته الابتدائية في مدرسة الفرنسيسكان ونال شهادته الثانوية من كلية الفرير بالقدس عام ١٩١١ . وفي اول نشاته عرف جاره الياس الشدياق ترجمان بطريركية اللاتين بالقدس فعرف فيه شاعرا فذا وفي ساعات فراغه كان يعرج على ذلك الجار الشاعر ليشبع نفسه النهمة الى الادب بقصائد مطولة عذبة كان من عادة الشدياق ان يتلوها على مسمعه فحفظ لورنس بعض تلك القصائد . ومن منظوم ذلك الجار الترجمان الذي استهواه فحفظه قول الشدياق :

وما لقب الاصاغر كان صفرا ولكن رغبة الزهد الاكيد
ورب ملابس بالصفر كبرا تصاغر وهو داهية الاسود
وداس غوارب العلياء وطأ بنعل شد من ربق الجلود

وأول عمل زاوله المترجم له تعليم العربية في كلية الفرير بالقدس عام ١٩١١ و ١٩١٢ ومن طلابه فيها سماحة الحاج امين الحسيني مفتي الديار المقدسية والسيدان موسى العلمي أحد زعماء فلسطين ومؤسس المشروع الانشائي في أريحا وعيسى بندك صاحب جريدة « صوت الشعب » البيتلحمية .

وفي عام ١٩٠٩ نشر لورنس بعض نفثات قلمه في جريدة « القدس » لصاحبها المرحوم جرجي حبيب حنانيا . وفي عام ١٩١٢ اصدر مجلة خطية اسماها « رائد النجاح » وفي هذا العام اتصل بالمرحوم خليل بيدس صاحب مجلة « النفائس » وزوده بمقالات كانت غفلا من التوقيع منها مقال ترجمه عن الفرنسية بعنوان « جحيم دانتي » ثم أخذ ينشر في « النفائس » تحت توقيعه الصريح مقالات منها سلسلة كانت بعنوان « العوالم الاخرى » .

وفي الحرب العظمى الاولى زاول التجارة في بيت المقدس وفي اوائل الاحتلال البريطاني عمل موظفا في جمرك القدس ونشر مقالات في جريدة « بيت المقدس » لصاحبها المرحوم بندلي الياس مشحور .

وفي عام ١٩٢١ و ١٩٢٢ عين استاذا للغة العربية وآدابها في المدرسة الرشيدية بالقدس . وفي عام ١٩٢٣ استقال من عمله وانشأ مكتبة « بيت المقدس » وعلم العربية في كلية كردينال فراري (كلية تراسانطه فيما بعد) .وفي عام ١٩٣٣ انشأ مطبعة في مسقط رأسه باسم « المطبعة العصرية » وتولى نشر الكتب الادبية والتاريخية والمدرسية .

من آثاره القلمية : أضفى لورنس على الخزانة العربية طائفة من الكتب النفيسة وابرزها :

١ - تاريخ فلسطين - من اقدم الازمنة الى يومنا هذا - طبع عام ١٩٣٤ .

٢ - عظماء الماضي - ١٩٣٦ .

وله تعليقات على أول مجموعة للنصوص المختارة المطبوعة في « المطبعة العصرية » عام ١٩٤١ ، وصنف عشرين تمثيلية ونيف وتأثر بأبي الطيب وابن المقفع وقرأ « كليلة ودمنة » سبعين مرة وأتقن من اللغات الحية : العربية ، الفرنسية ، الانكليزية ، الايطالية واشتهر برسومه الزيتية وله لوحات رائعة في هذا الفن .

واتسم ادبه بأسلوب رائع واشتهر باطلاعه الواسع على الادب العربي قديما وحديثا وعلى الآداب الاوروبية واعتزازه بشوامخ الضاد امثال : المتنبي ، ابن المقفع والمعري الذي سخا الله به على الامة العربية فكان هبة من هبات السماء وشخصية عظيمة لا تتكرر !

نموذج من نثره : « لم يكبر سقراط ويبلغ مبلغ الرجال في أحد هذه المنازل الفاخرة ، بل في بيت حقير قليل الاثاث . ولم يكن يبالي بالغنى او المقتنيات النفيسة ، بل كان كلما تقدم في السن يقل اكتراثه لراحته الجسدية وملاذه ، وينصرف الى كل ما هو فاضل جليل عادل ، وكان يحب الشجاعة ايضا . وذلك ما قاله فيه احد كبار اصدقائه :

(كنت وسقراط جنديين في وقت واحد ، وكان اقتداره على تحمل البرد يدهشنا ، فقد اشتد الصقيع ذات يوم وكلنا ، ما عدا سقراط ، لزمنا البيوت او كنا ، اذا اضطررنا الى الخروج نتلفع بالكثير من الثياب ، وننتعل اغلظ النعال ، ونعصب ارجلنا باللبد والجزائز ، وكان سقراط مع ذلك ، يسير على الجليد حافي القدمين ، مكتسيا بثيابه العادية ، فيبدو اجلد على السير من سائر الجنود المنتعلين !)

وكان سقراط كلما تقدم في السن يزداد رثاثة ودمامة وتفكيرا . وصار الناس اذا ما رأوا وجهه المألوف في الشوارع ، يقول بعضهم لبعض : هذا سقراط ، هلموا نحادثه !

وذلك لان ابن الحجار اصبح معلما مشهورا ، وكان من عادته أن يطوف في الاغرا ، طول النهار ، محادثا ومحاجا اولئك الذين كانوا يحيونه ، طارحا عليهم اسئلة عديدة .وكان الناس بعد ان يفرغوا من الحديث معه ينصرفون مضطربي العقول . وأخذوا بتأثير الاسئلة التي كان يطرحها عليهم يشكون في كثير ، مما كانوا يعدونه من الحقائق المقررة . وصاروا يفكرون طويلا في أمور ، كانوا يعتقدون حتى ذلك الوقت صحتها .

وكان من رأي سقراط انه ينبغي لكل انسان ان يتعلم التفكير لنفسه ، حتى يستطيع ، اذا ما استعمل العقل ، ان يعرف ما هو مستقيم ، وما هو حق ، وما هو جميل ، ويكيف سيرته بحسب ذلك . وكان يريد ان تكون اثينا بلدا كاملا . وكان يقول لتلاميذه : ان ذلك لا يتم الا اذا هذب كل من الاهلين عقله ، كيما يعرف ما هو قويم ، وما هو نبيل ! وكان من رأيه ، ان في التساؤل والنقاش ما يساعد على ذلك ، ولذا كان دائما يحادث قومه في الشوارع !

وكان يعلم الاولاد كما كان يعلم الكبار . واتفق ان زار مرة احدى المدارس ، فجاء اثنان من صغار الاولاد ، وجلسا بجانبه ، فسألهما سقراط : أيكما اكبر سنا من الآخر ؟ . فاجاب احداهما : اننا نتخاصم في ذلك ! فقال سقراط : أيكما اشرف ؟ وايكما اجمل ؟ وهل تريان في مثل هذه الامور موضوعا للخصام ؟ . فضحك الولدان وأجابا : نعم ! ولكن سقراط نظر اليهما حالا وقال : لست اسأل ايكما اغنى ، لانكما صديقان ، وكل شيء بين الاصدقاء مشترك ، فليس الواحد منهم اغنى من الآخر !

ولما طعن سقراط في السن ذاعت شهرته في الآفاق وفتحت في وجهه ابواب كثير من منازل الاغنياء والاشراف ، لان الناس كانوا يرون شرفا لهم ان يستضيفهم سقراط .

واجتمع حوله مع الزمن زمرة من الطلاب ، وكانوا يتبعونه أينما سار . وكان بينهم شاب يدعى افلاطون وعى كل كلمة نطق بها معلمه ،

وغدا فيما بعد معلما شهيرا ، كسقراط نفسه . وقام افلاطون بعمل سقراط وواصل تهذيب عقول الناس ، لجعلهم يفكرون لانفسهم .ولم يكتف افلاطون بان يعلم بالمحادثة ، كما فعل معلمه ، بل قضى معظم حياته يكتب ويؤلف محادثات ، بين سقراط وآخرين ، تكاد لا تعدو الواقع . وقد استقينا اكثر ما نعرفه عن سقراط من كتب افلاطون لان سقراط نفسه لم يكتب شيئا .

ومع ان كثيرين كانوا يحبون سقراط الشيخ ، ويبتهجون بحكمته، فان البعض لم ترقهم تعاليمه . فانه كان يعلم : ان لعقل الانسان تأثيرا في سيرته اعظم من تأثير الآلهة !. فظهر ذلك لبعضهم بدعة جديدة ورأيا قائلا . وكان يقول : ان من الاعمال ما هو اشرف من التضحية للآلهة اثينا وغيرها من آلهة اليونان ! فظن الكثيرون انه انما يقود الشبيبة في سبيل الضلال ! حينئذ استدعى حكام اثينا سقراط ليمثل امامهم لمحاكمته .فرغب اليه اصدقاؤه ان يهرب ، او ان يختبيء ريثما تنقضي العاصفة .الا ان سقراط لم يكن جبانا ، فقد كان يعلم انه لم يأت شرا وانما علم ما كان يراه عدلا وحقا . ولذا ذهب الى المحكمة شيخا قصير القامة ، دميم الخلقة ، مغبرا عليه آثار السفر .غير ان قلبا نبيلا كان يخفق تحت ثيابه الرثة التي الفها الجميع !» .

٢ ـ عارف حجازي

في صفد الخضراء أطل « عارف » على الوجود عام ١٩٠٠ وأنهى دراسته الابتدائية فيها والثانوية في سلطاني بيروت . وفي عام ١٩١٧ قصد دمشق وانتسب لـ « دار المعلمين » وظل فيها الى ان دخلها الجيش العربي فاتحا بقيادة فيصل بن الحسين فنال شهادتها في عهد مديرها جميل الدهان وكان استاذ العربية فيها الشيخ عبد الرحمن سلام الشاعر المعروف والخطيب المشهور .

وبعد ان اندحر الجيش العربي في معركة ميسلون ودخل غورو دمشق فاتحا منتصرا عاد «عارف» الى مسقط رأسه وعين في عهد الانتداب البريطاني معلما للعربية في ثانوية صفد وفي عام (١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) انتسب الى معهد الحقوق الفلسطيني بالقدس وكان من زملائه فيه احمد الشقيري وصبحي الخضرا .

وفي ثورة عام ١٩٢٩ التي شب لظاها في سماء فلسطين ألقت السلطات البريطانية القبض عليه مع مئات من مواطنيه وزجت بهم في سجون ومعتقلات فلسطين ثأرا لليهود الذين قتلوا في تلك الثورة ، وكان نصيب آل حجازي ممن اعتقلوا وسجنوا حصة الاسد وفي طليعتهم المرحوم الشهيد فؤاد حجازي .

وبعد ان أخلى البريطانيون سبيل المعتقلين نقل « عارف » الى ثانوية حيفا معلما للعربية .وفي عام ١٩٣٥ استقال من سلك التعليم وزاول المحاماة في جارة الكرمل وظل فيها الى ان نشبت الحرب العالمية الثانية فعاد الى صفد ليزاول مهنته بين مواطنيه وذويه . وفي النكبة الكبرى قصد عمان عاصمة الاردن وزاول المحاماة وهو يذكر وطنا مغصوبا ، وشعبا مغلوبا ، وشرفا معطوبا .

نموذج من شعره : قرض « عارف » الشعر في صباه وتميز بشعر عذب رقيق ومن شعره الوجداني قوله :

أقوم الليل اهتف بالنشيد
وأرقب مطلع الفجر البعيد
وأروي للنجوم حديث خود
تناهت رقة وسمت خصالا

نماها للدجى طرف كحيل
وفرع ناعم سبط طويل
وللورقاء ذياك الهديل
تردده ابتداها وارتجالا

على الاوتار ترسلها خفافا
أنامل موصليات لطافا
تلاعبها افتراقا وائتلافا
فتجري رقة وشجى توالى

علينا من ظلال الروض ستر
تداول فرعه طي ونشر
وفي جنباته قد ساح نهر
جنان الخلد معنى واكتمالا

الى الاحلام اسلمها الفرام
وطاب لها على صدري المنام
صنيع الطفل أضناه الفطام
فقر هناك لا ينوي انفصالا

ترددها اريج الزهر طيبا
على صدري فتنتظم القلوبا
وتلهب في العروق دمي لهيبا
ضرام لا أطيق له احتمالا

أيسلم عيشنا من كل نكد ؟
وتجري ريحنا في كل سعد ؟
فننعم بالهوى أخدان رغد ؟
أمان قد ركبت بها المحالا !

٣ ـ الاب اسطفان يوسف سالم

في ربيع عام ١٩١٣ ولد اسطفان يوسف سالم في الناصرة بفلسطين وانهى دروسه الابتدائية في كلية الآباء السالزيان عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢٤ ثم في مدرسة الارض المقدسة ١٩٢٥ وفي صيف هذا العام بارح مسقط رأسه الى عمواس (من اعمال القدس) والتحق بكلية الآباء الفرنسيين وفي صيف عام ١٩٢٩ ارتدى مسوح الراهب وفي عام ١٩٣٢ انهى درس الفلسفة في بيت لحم فدرس اللاهوت بالقدس ١٩٣٤ ـ ١٩٣٧ .وفي صيف عام ١٩٣٧ سيم كاهنا بالناصرة وانشأ مجلة اسبوعية اسماها « السلام والخير » وتولى تحريرها بمفرده وتعليم الرهبان الاجانب العربية .

وفي خريف عام ١٩٣٩ اسندت اليه ادارة مدرسة بيت لحم الابتدائية فنهض بها نهضة جبارة وحولها الى ثانوية كاملة ، وبرغبة ابداها ترك ادارتها عام ١٩٤٤ واضطلع بادارة مدرسة القدس للسالزيان .وفي صيف عام ١٩٤٦ تولى انشاء « ثانوية الارض المقدسة » في ثغر اللاذقية لتحل محل كلية الفرير هناك فنجح في اداء مهمته على أحسن وجه .

من آثاره القلمية : ١ ـ أفكار وأعمال (تأملات للشبيبة) . ٢ ـ تاريخ البروتستانت (جزءان) ٣ ـ شهادة مشاهير العرب في رئاسة القديس بطرس وشرحها . ٤ ـ فن الموسيقى ٥ ـ الموسيقى (جزءان) . ٦ ـ القديس برنارد ينوس السياني . ٧ ـ فن انشاد الشعر العربي (بمشاركة الدكتور اسحق موسى الحسيني) . ٨ ـ معجم الثقافة اليونانية الرومانية (بمشاركة الدكتور محمود الغول). ٩ ـ ندوة كلوت بك . ١٠ ـ دقت الساعة يا فلسطين (قصة وطنية).

ارادة

لا تتركي الاوهام تطوي المدى
واقتربي !... اني هنا لم أزل
أبحث عن نفسي ولا أهتدي
ماذا علي اليوم لو أنني
وقلت للايام : لا تحقدي
وللرياح الهوج : لا تعصفي
حبيبتي ... يا لحن أنشودة
أن تحرمي دنياي من بهجة
فلم تزل في الافق من نجمة

أخاف ان أبكي وأبكي غدا
أمشي على درب الهوى مفردا
وأي ذي قلب سواي اهتدى
مددت رغمي للاماني يدا
فلست أخشى الكون ان يحقدا
فان لي فوق الثرى مقعدا
بنيت في قلبي لها معبدا
بغيرها ما عشت لن أسعدا
تناشد الاحزان أن تبعدا

لان هذا العمر يمضي سدى
وأينما سرت فلا أنثني
أريد ان أحيا ... وحولي المنى
وأطعم اللذات من صبوة
حتى اذا ولى شبابي ولم
اومأت للامس وخليته

والدهر غدار قليل الجدى
ألمح من حولي طيوف الردى
تلهمني لحنا عميق الصدى
جذوتها في القلب لن تخمدا
يجدد الحب له موعدا
يرجعني طفلا من المبتدى

عمان ـ الاردن

عبدالرحمن سالم عاليه

---

١١ ـ ابليس المجرب مجرب (تمثيلية نقدية للكاتب الايطالي بابيني).
١٢ ـ السجناء الاحرار (مسرحية) . ١٣ ـ غرام ميت (مسرحية).
١٤ ـ قبلة المحبة (مسرحية) . ١٥ ـ صراع بين العلم والايمان
(مسرحية) . ١٦ ـ صديق حتى الموت . ١٧ ـ يوم الجيش .
١٨ ـ الموسيقى خير علاج (مسرحية هزلية) . ١٩ ـ فادي أبيه .
٢٠ ـ محرر السجون. ٢١ ـ الذئب والغنم. ٢٢ ـ الصفح خير انتقام. ٢٣ ـ ماساة القديس بطرس. ٢٤ ـ راسان من خشب.
٢٥ ـ هدية السماء .

نموذج من نثره : « دقت الساعة ! فدوى المدفع ، وزمجرت الطائرة ، وانقض الصاروخ ، وزحفت الدبابة ، فلمعت السماء واشتعلت الارض !

وتقدمت الجيوش العربية على طول خط الهدنة ، وانتفض عرب غزة ليلاقوا عرب اللد والرملة ويافا والناصرة ... تعالى الغبار ، وسالت الدماء ، فسقط الشهداء ، واندحرت جيوش المغتصب مرتدة الى البحر ... وارتفعت الراية العربية على ربوع فلسطين !

ألا يحق لنا ان نتخيل ؟ ألا يحق لنا ان نمتع الطرف بالوان الراية المظفرة ... تعلن نهاية النكبة ؟ بعدما كلت العين وهي تنظر الى الوطن المغصوب ممزقا ..حزينا..وقطيع الذئاب يملأ ربوعه بالعواء!

الا يحق لنا ان نتخيل الوطن حرا يستقبل ابناءه العائدين بعد التشريد ، ويفك أغلال القابعين في بيوتهم سجناء ينتظرون يوم الخلاص والنداء ، وينظم عقدهم ثانية ، ويعيد اليهم طمأنينةالقلب، ويبعث فيهم الامل والرجاء !

فلسطين ! يا مهد عيسى والصخرة الحرام !

ذبحوا ابناءك وما قالوا حرام !

فرقوا الاحباب ، ويلي ، في الشهر الحرام !

لقد جرب ابليس أيوب العربي الصديق ففقد ماشيته ، وأملاكه، وتهدمت دوره ، ومات ابناؤه ، وبليت صحته بأخبث مرض ، وكان يسلم امره لله ويشكر ويقول : الله أعطى ، والله أخذ ، فليكن اسمه مباركا ! وأخيرا عوض الله أضعاف ما كان يملك من الانعام والبنين !

ان تجربة عرب فلسطين اشد من ان تحصر في اغتصاب ارض، ونسف قرية ، وتهديم بيوت ، وذبح ابرياء ، وتشريد اقرباء ، ودفن احياء في خيمة من مخلفات جيوش الاستعمار ، ضربت اوتادها فى الصحراء ، وبين الصخور ، وعلى ضفاف الانهر !

دقت الساعة ... فدوى المدفع ، ورفعت الراية المظفرة !

لنتخيل تلك الساعة وفرحتها في القدس وغزة واللد والرملة ويافا وحيفا والناصرة وبيسان وصفد !

لنتخيل هزتها في القاهرة وبيروت ودمشق وعمان وبغداد والرياض وصنعاء ... وفي برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ... من المحيط الهندي الى المحيط الاطلسي !

دقت الساعة ... فرحت اتجول في ارجاء فلسطين لاحيي ذكريات النكبة القاسية ، وأشاطر ابناءها الضحايا في كل مكان حزنهم مسجونين ... مضطهدين في وطنهم ، وجميعهم فريسة الفقر والشقاء والحرمان !

رافقتهم ، وتحدثت اليهم ، وشاطرتهم كآبتهم وفرحتهم ، ترافقني الدمعة والغصة ، وامسحها لاعود اذرفها وانا اضع اكليلا من ازهار فلسطين على مثوى والدتي،وعلى قبور الشهداء منابناءامتي!

لقد تم فداء فلسطين موطني! ألا يحق لنا ان نتخيل ...ياعرب؟

فلسطين ، يا غرة الارض ، والمجد الماضي ،
بوحدة الصف، نفوز ، سلاحنا ماضي ،
لا تياسي بالله فعزم القلب ماضي ، »

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

البلاغة عند أمين الخولي

بقلم عدنان بن ذريل

***

الخطوة الحاسمة في التأصيل العلمي، في البلاغة العربية اليوم، أتى بها بالامس القريب، العلامة الجليل، الخالد الذكر، المرحوم امين الخولي .. فقد ربح التراث الحديث في البلاغة العربية، من جهوده دراسات منهجية، دقيقة، متعمقة، في مجالات مختلفة للبحث البلاغي الحديث، مثل: البلاغة المقارنة، أو تاريخ البلاغة، مدارسها، أعلامها، كتبها، او ايضا مجالاتها الفنية، والنفسية، توجهها بكتابه «فن القول» مصر، ١٩٤٨، والذي ظل يا حسرة، في حدود التخطيط، والتنهيج، والقاء الاضواء.

لقد طوت يد المنون علامتنا الجليل امين الخولي، ومباحثه بهذا الرسم، وعلى هذه الشاكلة، وكم كنت كتبت له أرجوه، بل أحثه، ان يوسع الابحاث المنهجية التي أجملها، خاصة بعض المسائل الهامة منها، والاساسية في البلاغة اليوم، كالاسلوب مثلا .. وكم وعدني بالقيام بذلك، ثم لم يجد الوقت له .. وماذا كان يمكنه ان يوسع مما أجمل، ودراساته، بالفعل، مكتفية بنفسها، وعلى الخصوص أنه، وهو الامين على التراث، وعلى المنهج، وعلى البحث، لا يفرط بدراسة دون مردود ؟

وأظن ان حرصه العلمي على المادة العلمية التي يكتبها، الى جانب مشاغله التعليمية، والادبية وحتى آخر حياته، لم يسمح له بدراسات أخرى يضيفها الى دراساته حتى فن القول، وخطته ..

واذا كان ذلك مما نأسف له اليوم، ونتحسر للعلم الذي خسرناه له، الا ان لنا عزاء في ان روح استاذنا، وصديقنا العلامة الجليل أمين الخولي، ظلت، وتظل مهيمنة على هذه الدراسات المنهجية، الدقيقة، المختلفة، التي خطط بها للتأصيل العلمي، والادبي، للبلاغة العربية اليوم، كأنما أبت مشيئة الله تعالى، والتي جادت علينا بعبقرية علامتنا امين الخولي، أبت الا ان تظل هذه العبقرية روحا مهيمنة على التأصيل العلمي، والادبي الحديث في البلاغة اليوم، كما كانت في حياتها، وعاشت في ذلك عيشة التجديد الاصيل، والصائب، والمجدي.

وقد بدأت محاولات (سقراط البلاغة)، العلامة أمين الخولي، في التجديد البلاغي، عام ١٩٢٨، اذ كان يدرس الادب، والبلاغة في كلية الآداب، في الجامعة المصرية، ولم تنقطع تحقيقاته، اثر ذلك، في شتى هذه المجالات الادبية، والبلاغية، حتى آخر حياته ..

اقول (سقراط البلاغة) .. وهو نعت، كثيرا ما كنت انعت به (شيخ الامناء)، في حياته، فيضحك له.. **انه النعت الذي ينصفه في جهوده المنهجية، الرائدة،** وروحه البصيرة المهيمنة، في حياته ومماته، والتي يلخصها حقا التلقين الحي، ولنقل المحاورة، وايضا المرح المجدي، وأكاد أقول السخرية، السخرية بالاحرى بعجزنا، وجهلنا، وتقاعسنا عن الكمال ..

كان سقراط يستعين بالمحاورة، والسخرية لتعريف الناس بأنفسهم، كان سقراط يحاور ابناء الشعب، حتى **ابناء الشوارع منهم، ويصدمهم، ساخرا منهم، صدمات** روحية تقفهم على حقيقة حالهم ..

وكذلك كان سقراط البلاغة، أمين الخولي، رحمه الله تعالى، يحاور تلاميذه في ابحاثه، ويضحك معهم، ويسخر منهم ايضا في بعض الاحيان .. لقد كان مرحا في جد، بشوشا في تفاؤل، خفيف الظل، محبا للنكتة، وحاضر البديهة ..

اذكر انه، مرة، في حفلة سمر جامعية، مع طلابه، وبمناسبة حديث عن النكات، وان بعض الاساتذة القدامى، كان يضع جائزة لمن يقول نكتة ناجحة فيه نفسه، أنه سمح بالتنكيت على هذه الطريقة ايضا .. فانبرى بعض الحاذقين في النكات من التلاميذ يتراشقون النكات حول علامتنا امين الخولي، نفسه، كما سمح بذلك، وحول بعض الحضور من الامناء، او من اساتذة الجامعة .. وعلقوا بكلمة «خولي»، أي بستاني ..

ويظهر ان الكلمة «خولي» تعني، ايضا، باللهجة المصرية، الشعبية (سائس اسطبل)، فانتقلت النكات الضاحكة، والساخرة، الى (العربية) كارو، والى الحنتور، والإسطبلات، والبهيم ..

رحم الله خولي الفن القولي العزي، اليوم .. ان كتابه «فن القول» خطاب الى تلاميذه، وتخطيط للاجيال المقبلة في التجديد البلاغي .. وجل دراساته حوار مع تلاميذه، او مع جمهور الدارسين في الكليات العلمية، والادبية العربية، المقبلين ..

ولست أعرف للعلامة امين الخولي نتاجا ادبيا، غير مسرحيات قديمة لم تنشر، كان حدثني هو نفسه عنها، في حديث تطرقنا فيه الى الادب، وانتاجه فيه، فذكر لي ان له نتاجا قديما في المسرح ..

وقد اشار الاستاذ شكري عياد، في تقديمه كتاب «مناهج تجديد» لامين الخولي، مصر ١٩٦١، الى ذلك، فذكر انه يرجع الى أيام التحصيل في القضاء الشرعي، اذ كان (يضع التمثيليات **لجوق له شانه في ذلك الزمان** «جوق عكاشة»، وينجح طالب القضاء الشرعي، فيما يكتب من تمثيل، حتى ليعرض عليه أصحاب الجوق، كما حدثني، ان يترك دراسته، ويفرغ لوضع التمثيليات ولكنه يثابر على دراسته الفقهية، ويبرز فيها...)ص٩.

ثم لا نعرف ان علامتنا امين الخولي عاود النتاج الادبي ، أي نتاج ادبي ، على اختلاف أنواعه آنئذ ، وربما له نتاج لا نعرفه .. بل صرف همه الى البحث العلمي ، الادبي المنهجي ، الدقيق ، في مجالات الادب ، والبلاغة المختلفة ، مع مشاركة في دراسات تاريخية ، وتحليلية في الاسلام ، وبعض اعلامه، أو المجتمع الاسلامي ، وبعض مظاهـره ..

ويمكننا حقا ، ان نقول في جهود العلامة أمين الخولي..أنه عندما شرع في الدراسة الادبية ،والبلاغية، والتأصيل فيهما ، لم يكن للنقد الادبي ، ولا للبلاغة ، علم موطد الاركان ،• واضح المعالم .. حقا ان طموح الجامعة المصرية ، كلية الآداب ، ظل وراء التجديد النقدي ، والبلاغي ، والادبي على العموم منذ العقد الثاني ، من القرن العشرين .. ولكن النتاج الفعلي في التأصيل لم يكن وصل بعد فيهما ، الى مستوى علمي ، وأدبي ، شامل ، مقنع ، ومدعم ..

لقد كانت جهود طه حسين ، آنئذ ، منصرفة الى التاريخ الادبي نفسه ، ثم احيانا الى النقد الادبي ، بينما لم تكن جهود احمد امين ، في مجال النقد الادبي مثلا ، اكثر من حماسة الى تلخيص الرصيد الغربي الحديث ، الوافد الينا ، مع تطبيق هذه النظرات النقدية الحديثة التي له ، على الادب العربي ، القديم منه ، او الحديث..

ان البلاغة عند الغربيين ، اليوم ، ما تزال على رسومها القديمة التي توارثتها عن اليونان ، والرومان ، من تضمنها الموضوعات الكبرى الثلاثة : الايجاد ،والترتيب، والتعبير ، وهي عندهم ، اليوم ، مهملة ، منافسها ، يحول دون رواجها ، ونموها ، او تطورها عندهم التطور المجدي ،السيل المنهمر من الدراسات الجمالية، والفنية ، والنقدية المختلفة ..

ومناهجها عندهم لا تزال المناهج الفنية ، والنفسية، والاسلوبية ، واذا افتن الغربيون اليوم ، في مبحث من المباحث ، او منهج من المناهج فيها ، ففي اتجاه ذوق من الاذواق ، أو منحى من المناحي ، مثل أيثار الوضعية ، والفكر العلمي ، والذي رأيناه يطبع الدراسات الحديثة ، في البلاغة عند الفرنسيين، بطابعه المميز، والمتوخي الدقة.

واذا تأملنا مراجع العلامة امين الخولي ، في البلاغة العربية اليوم ، خاصة التي اعتمدها للدراسة المقارنة في البلاغة الحديثة ، وجدناها مراجع عادية ، هـي الصورة التبسيطية عند الغربيين ، الطليان منهم ، الصورةالبسيطة التي تدرس للثانوي ، والجامعة ، في شكلها الحالي الذي هيكلت عليه ، كأرث انساني عن اليونان ، والرومـان .. (فن القول ، بلاغة اليوم) .

كما نجد ايضا ، الى جانبها ، ذلك الشكل القديـم ، والمتوارث عندنا ، لتلخيص التعليم الارسطاليسي فـي البلاغة ، كتاب الشعر، البويطيقا، والخطابة ،الريطوريقا، دلل عليه في مظانه ولخصه .. (مناهج تجديد ، ص١٥٢ ـ ١٥٥) مثـلا ..

في معظم دراساته المنهجية ، بل وفي خطتـه فـي « فن القول » نفسـه ، لم يفصل أمين الخولـي دراسـة البلاغة عن الادب، ولا عن الحياة، وانما راح، على العكس، يستعين بالعلوم التي تفسر النشاط الفني ، الادبـي ، وتشرح حياة الاديب في ذاته ، وفي مجتمعه ، ليقيم على معطياتها ، ونتائجها تجديده في خطته لفن القول ، والتي نصت منذ محاولاته الاولى ، كما فـي دراسته في دائرة المعارف ، على المقدمتين الفنية ، والنفسية ..

وكذلك استعان امين الخولي ، في عمله الادبـي ، والبلاغي ، ولنقل ايضا النقدي ، والذي كان يراه شيئا متمما للعمل البلاغي بالعلم ، بل حسب حسابا للمنهج العلمي ، الادبي ، نفسه في دراسـة الادب ، وعلـى الخصوص ، اظهار اثر البيئة في الادب ، وما استلـزم عنده من قول بالاقليمية الادبية ..

ان ذلك شيء بارز في خطته لفن القول نفسها ، اذ رأينا فن القول يصل الى تمصير البلاغة ، والبحث فـي الحس المصري ، بالضبط ، كما عكس منهجه الدعوة الى دراسة الادب الاقليمي ، البيئوي ، المحلي ، المصـري مثـلا ، او غيـره ..

والاقليمية الادبية عند امين الخولي صورة اصيلة ، من صور التأصيل العربي ، الحديـث لـدرس الادب وتاريخه .. والتي نعرف قبلها صورة بسيطة ، وأدبية ، عند طه حسين ، حين آثر ان يعتمد الذوق ، والمقيـاس الادبي لتاريخ الادب ، دون المقياس السياسي ، او العلمي، خاصة المقياس الاخير ، والذي يغمط ، في نظره ، ذاتية الادب ، وذوق الدارس ، والناقد ..

وأساس الاقليمية الادبية عند امين الخولي،ما مررنا به من ربط الادب بالحياة ، او تقدير اثر البيئة ايضا ..

الا انها ليست اقليمية متحجرة ، محدودة فقـط بتبيين العوامل البيئوية ، او ايضا الاجتماعية كما يخيل الى البعض ، او لنقل ، ليست اقليمية ، واقليمية فقط دون سواها .. وانما هي تتسع لانسانية الاديب نفسه ، كما ان قسما كبيرا من تأصيلها منصرف الى الاديب نفسه، تجربته ، وتفاعله مع الحياة حوله ..

ومن هنا عكست الحس النفسي للدرس الادبـي ، والبلاغي ، والنقدي ايضا ، كما سبق وأشرنا ، للادب ، وظلت على صلة وثقى بالناحية النفسية في ذلك كله .. واذا كان نص فن القول على تمصير البلاغة ، الا ان ربطه المستمر للادب بالحياة ، يوسع مما يمكـن ان يضيقـه التقيد فقط بالاقليـم ..

وذلك ما يميز ، بالفعل ، الافق الانساني الرحب ، والمثمر للتأصيل البلاغي الحديث عند امين الخولي رحمه الله تعالى ، رحمة واسعة ، وأرجو ان تكون لـي عـودة قريبا على تعليمه ، أوضح معالمه الصائبة ، والمثمرة ..

دمشـق

عدنان بن ذريل



ابـو طالـب زيـان

أنا واصحابي.. في الادب والحياة

بقلـم ابو طالـب زيـان

* * *

دخل علي أصحابي في ليلة مـن ليالـي شهر ديسمبر الباردة ، مكتبي الذي اعتدت ان اقضي فيه أحلى ساعات حياتي ، وأمتعها وأعمرها بالثروة ، واغناها بالمكاسب الادبية التي أحصل عليها من وراء هذا المكتب المتواضع..

ولقد تعودت ان اسمي اولادي : اصحابي ، وانادي كلا منهم بما يشعره بالاحترام ، او يتيه به بين اخوته من تبجيل وتعظيم ، فهم بحمد الله قد خرجوا عـن طـور الطفولة ، وأوشكوا ان يقفوا على عتبة الحياة ...

دخل هؤلاء الصحاب ، في منتصف ذلك الليـل او بعده بقليل ، وأنا أطالع « العقاد » في كتابـه « أنـا » واراجع مقدمة طاهر الطناحي للتعريف به ، وأقرن حياته الان بحياته بالامس ، وهو يجلس من وراء مكتبه في «دار الهلال » ، يراجع ويوجه ، ويستقبـل الزائريـن ، ولا تفارقه عادته في الربط بين حياته ، وهو على هذهالوتيرة من العمل ، وبين من لقيهم في حياته من ادباء كبار ، او علماء بارزين ...

قالت لي ابنتي الكبرى :

أليس لهذه الحياة التي تحياها من آخر .. تريـد حياة السهر ، وما يدخل فيها من كتابة ومطالعـة ، دون مكسب مادي يعود عليها أو على اخواتها ..؟

قلت : وهل جنى العقاد شيئا ، او ترك ضيعة ؟

قالت : وهي تتخابث ، أريد ان أصل معك الى هذا الحد .. ولهذا اجتمعت « أنا » واخوتي الثلاثة ، وصممنا على اقتحام هذه «الخلوة» في هذه الساعة من الليـل ، وان كنت تغضب ، او تطردنا من هذا المكان .. وعلى ذلك فقد ند خامسنا ، لانه لا يرى فائدة من وراء الرجاء ، أو يرى أننا سنعود مقدما ، نجر أذيال الخيبة لاننا لا نقوى على اقناعك او مجادلتك في هذه السبيل..

قلت : مهلا يا ابنتي .. كان العقاد يرحمه الله ، يقرأ كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ العام ، وكتب التاريخ الطبيعي ، وتراجم العظماء ودواوين الشعر .. وقال مرة عندما سئل عن هذه القراءات المختلفة :

« انني اقرأ هذه الكتب ، واعتقد ان العلاقة بينهـا متينة ، وان كانت تفترق في الظاهر ، اذ تؤدي جميعـا الى توسيع أفق الحياة أمام الانسان . فكتب الفلسفـة الدينية تبين الى اي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعـد الموت . وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة . وتراجم العظمـاء معـرض لاصناف عالية من الحياة القوية البارزة .والشعر هـو ترجمان العواطف ، فانا لا اقرأ من الكتب الا ما له مساس بسـر الحيـاة » .

قال أخوها ، وهو ينحو ناحية عملية في حياتـه ، وعلى ذلك فقد مات العقاد فقيرا كما أعلمتنا حين قبض وذهب الى جوار الله .. لم يعقب ولدا يحمل اسمـه ، ولم يخلف ثروة تكون عنوانا له ..!!

قلت : هونوا عليكم يا أصحابي ، فالعقاد قد تـرك اكثر من ثمانين ضيعة ، هي ذكراه يوم لا تنفع ذكرى ، وهي له يوم لا يكون لانسان اي شيء في هذه الدنيا ..

وعندئذ دخلت ابنتي الوسطى ، وهي تعد نفسها في هذا العام لدخول كلية عملية كأخوتها الذين سلكوا هـذا الطريق ، دون اخذ رأيي ، او دون استشارتي حتى في مستقبل حياتهم ، فأنا قد تركت لهم حرية الاختيار في هذه الحياة ، وحرية الترك والعمل ، وحريـة المأكـل والمشرب ، وقلت في نفسي : لعل نظرتهم تصيـب ، او لعلي اكون على خطأ ان انا رسمت لهم طريق هذه الحياة.. ويكفي خطأي أو خطئي أنا وأنا امضي دون وعي في مستهل حياتي ، وأجري وراء هذا السراب الخادع الذي ظننتـه ماء ، وظهر أنه غير ماء ...

كنت وصديق لي ، هو زميل ايام دراستنا ، نقضي الليل كله في قراءة « الاغاني » او « أمال القالـي » أو « عيون الاخبار » ، ونفضل هذه الكتب على كتب الدراسة التي حضرنا من قرانا لدراستها وتركنا اهلنا مشغوليـن علينا بسببها طيلة ايام هذه الدراسة ، غير بحثنا الطويل في آخر اليوم عند الوراقين في أزقة القاهرة وشوارعها عن الكتب التي تهمنا بأرخص سعر ، وبأقل ثمن ، فضلا عن مطالعة ما يكتبه العقاد والمازني وطه حسين واحمـد

أمين والزيات في المجلات الادبية ، أو ما يودعونه بطون الكتب التي تحمل أسماءهم في تيه وعجب ، غير اللقاءات التي كنا نسعد بها بالجامعة او مجالس الادب ، او ندوات الشعر أو في احد المقاهي التي تحتضن القاهرة من كل جانـب ..

قالت ابنتي الصغرى : وما هو مكسبك بعد هـذه الحياة التي عشتها مع هؤلاء الادباء ..؟

قلت : ظهر «الزيات» في وقت اعلـن فيه : انـه يحارب الجمود الفكري الذي ران على عقول الادباء وقتا طويلا واخذ يدعو وصحبه الاخيار : العقاد وطه حسيـن واحمد أمين وبعض من أكلتهم الحياة وطعمتهم الدنيـا ، وسط تلك السنين الغوابر ، لا يألو على شيء الا ان يقف على قدميه في بيداء الحياة الادبية المترامية : كل همه ان يغنى بعد فقر ، ويروى بعد ظمأ ، فكانت هذه الضيعة التي تمخضت عنها «الرسالة» وكانت البنايات الشاهقـة التي تعلو سماء القاهرة ، وكان ذلك «النزل» الذي يقيـم فيه الان ، وكانت تلك الوظيفة التقليدية التي يحج اليهـا كل شهر ، وكانت تلك الكلمة المسموعة التي ينحتها مـن الصخر بين وقت وآخر : مجاملا او معقبا او ناعبا ... !!

وكان طه حسين الذي اخرس بفعل السنين وعوامل الزمن الا ان قلبه مطمئن الى ما خلف من تلاميذ وما ترك من تراث ، وكان أحمد امين الذي عز عليـه ان يغنـى «الزيات» دونه فذهب يؤذن في «الثقافة» وينافس زميله، وينقم عليه فعلته ، الى ان طواه الزمن وابتلع «ثقافته» كما ابتلع «رسالة» الزيات ، وان كانت دراساته في «ضحى الاسلام » و«فجره» و «ظهره» ما تزال المراجع الكبـرى في الادب والتاريخ ..

على ان الذي يؤسف له ، ان العقاد بقي متخلفا عن هذه المنافسة ، قانعا بعطاء الزيات له ، مؤثرا الفقر على الغنى ، قاصدا بعمله خدمة اللغة والادب متحديا الرافعي رحمه الله ، ناقما عليه علمه ، متألما لقلمه ، شاكيا للـه وللناس قرصاته وقفشاته ، واستمرائه المعاندة ، وحبه المشاكسـة ...

قالت ابنتي الكبرى : أراك دائما يا أبتاه تذكر العقاد بخير كأنه نفس كبيرة ، وقلم جبار ، وانسان مثالي ، وعالم مقدم ، وأديب فاضل ..

قلت : هو كذلك يا ابنتي .. الرجل الذي يتمنى ان تنتهي حياته عندما تنتهي قدرته على الكتابة والقراءة ، هو رجل عظيم ... الرجل الذي يقول :

ستغرب شمس هذا العمر يوما ويغمض ناظري ليل الحمام
فهل يسري الى قبري خيال من الدنيا بابنـاء الانام
خلعت اسمي على الدنيا ورسمي فما ابكي رحيلي او مقامي

هو كذلك رجل عظيم ، وآية العظمة في هذا الرجل، انه خرج من الدنيا كما دخلها لم يترك ثروة مادية في بيته الذي تغنى به ، غير أحذيته الكثيرة التي كان يدوس بهـا على الدنيا او على الادباء الذين كانوا يتعالمون عليـه ، أو يتطاولون على انتاجه الكثير الممتع ..

قال ابني : لم ترك العقاد ثروته في «احذيته» ؟

قلت : يا بني .. كانت أمنية العقاد ان يصل الـى ما وصل اليه من مجد ورفعة وان يخلد اسمه فخلـد ، فأراد ان يضرب المثل للناس ، ان الدنيا لا تساوي شيئا ، وأن الضياع والعمارات ، ان هي الا متعة زائلة جـرى وراءها نفر من الادباء ، لتكون لهم عاصما من الفقـر ، وملاذا من العوز ، وان كانت هذه الفلسفة لم تتمثل الا في ثلاثة او اربعة..من محيط هذه الاسرة الكبيرةالكريمة!!

قالت ابنتي الوسطى : كان من الواجب يا ابتـاه ان يعين هذا الصحب بعضه بعضا كل بمقدار ما عنـده ، او كل بمقدار ما يجود به .. فالعقاد مثلا كان فقيـرا .. يعيش على قلمه ، وطه حسين صاحب وظيفة ، و «شنة» و «رنة» في يوم من الايام ، والزيات صاحـب «عزبـة» ويملك عمارتين في اغلى مكان في القاهرة .. والعقـاد يسكن بالاجرة ، والاجرة القليلة كما قلت لنا .. أفلا كان يمكن ان يعالجه من مرضه الاخير زميل له ممن أوتوا هذه المكاسب ، وكان للعقاد يد فيها ، او كان له نوع المشاركة فـي جمعهـا ؟

قلت : ليس الناس كلهم كما تحسبين يا ابنتي... بهذه الاريحية ، وليس كل الناس الذين يقبلون أمثالهذه المساعدات حتى ولو عاشوا والفقر خدنين مخلصيـن .

فالعقاد يرحمه الله .. كان يتحدى زميله «طه حسين » حتى آخر رمق من حياته ، ويعيب على صديقه الزيات ، سلوكه في بعض «المجلات» التي يشارك فيها بالرأي أو بالقلم او بالقوة ، وكان رحمه الله ، يحمله فشل مجلتـه «الرسالة» الجديدة بما جمع فيها من مجاملات او أقـلام كسيرة او افكار مبتسرة ، غير ما كان ينشره فيها مـن سجعات او نحتات ، تأبى على التطويع ، وتعز على الفهم ، مما جعل كثير من المثقفين يعرضون عنها ، ولا يقيمون لها وزنا ، على الرغم من اعلانه : ان الرسـالة الجديـدة ، امتداد للرسالة القديمة التـي كـان «الزيـات» بها مـن الموسرين والاغنياء ...

كنت يا ابنتي .. نحج الى كعبة العقاد ، أو الـى منزله المتواضع في مصر الجديدة يوم الجمعة من كـل اسبوع ، فنجد الرجل يستقبلنـا ببشاشتـه المعهودة ، ومداعباته الحلوة ويجلسنا عن يمينه وعن شماله وقبالته .. ونحن نسأل وهو يجيب ، دون من أو ملل او اكتئاب، او فرار من اي جواب ، والقوم مأخوذون بعلم الرجـل واطلاعه ، وهضمه لكل الثقافات ، كأننا أولاده يمحضنا النصح ، ويخلص لنا في الجواب ويعيب علينا التواكل والدعة ، وقصورنا عن ملاحقة ركب الثقافة ، وكان يثلج صدره رحمه الله ، ان يسأل سائل عن التيارات الثقافية في الشرق والغرب ، او يدخل فارس من الفرسان فـي

مناقشة ادبية تدور حول راي من آراء العقاد ، او راي غيره من الادباء ..

قلت يا بنية للعقاد في يوم من الايام ، وقد اشتد صراع الجدل حول الشعر القديم والشعر الجديد ، وتمثله في نفر ينبو الذوق عن ذكر اسمائهم :

هل يكون هناك «عقاد» آخر ؟ ما رأيك فيمن يسمونه الشعر الجديد ؟

وبتواضع أجابني الرجل عن سؤالي الاول .. ولم لا يكون هناك «عقادون» آخرون ما داموا يسلكون طريق « عقادهم » الاول ، ويترسمون طريقه ، ويمشون على منواله ... الست بشرا ؟ آكل كما تأكلون ، وانام كما تنامون ، وأقرأ كما تقرأون ؟.. الفرق بيني وبينك ، انني أعي ما اقرأ ، وافهم ما اقول ، ولا اتصدى لرأي الا بعد ان اكون قد قلبته ظهرا لبطن ، او بطنا لظهر ، واعملت فيه الفكر أياما وليالي ، ثم امسك بقلمي عن علم ، وأشق طريقي عن ثقة ، وادافع ولو انفض من حولي الاصدقاء والمحبون ... وربما لم يكن في حسابي ، وانا اطالع اي كتاب ، انني لا اجد من يشاركني رأيي فيه ، او ربما وجدت من عاب عليه طريقته أو انتقده لنقص في رأيه او حيدة عن الطريق .. وقد شغلت نفسي منذ الصغر بحب المطالعة ، والتعلق بهذا الامل الذي صرت اليه ، وقضيت الايام والشهور وانا اطوي قلمي في غمده ، ولا أشرعه الا وانا مؤمن ، بأن الوقت قد حان للوقوف في الميدان .. اما معشر الشباب وهم بحمد الله كثير ، فأول ما يتبادر الى ذهنهم ، وهو كليل ، الوقوف في الميدان ، والتصدي لكل قول ، ونقد ما لا يستحق النقد ، وعرض ما اتفقت الآراء على طيه ، أو أخذه دون اللغو او المساس بقدسياته ، وعلى ذلك يجب ان تؤمن الايمان كله ، بأن العقادين كثير اذا ما درسوا منهج العقاد في القراءة والكتابة ، وحببت اليهم خلوتي ، وشغلوا انفسهم بالبناء قبل الهدم ...

لكن يا بنية عندما جاء ذكر الشعر الجديد ، وزعامة نفر ممن يدعون انفسهم بأدباء ، انتفض الرجل انتفاضة كبيرة .. وقال : لا يوجد شعر بهذا الاسم ، او بهذه الصفة ، وكل ما يقال في هذا الصدد ، عي وحصر وهراء وعجز عن السير على قواعد العربية ... وما كان اغنى العرب عن هذا التكلف الذي يريد ان ينفك منه هذا النفر ، ويتحلل منه « الشويعريون » الذين يبتدعون لنا فنونا جديدة في الادب ، تبعدنا كل البعد عن قواعد اللغة ، وقوانين الضاد ..

قلت : الا أنك قلت هذا الشعر ودعوت الى هذا التجديد ؟

قال رحمه الله : معاذ الله .. انني قلت الشعر الحديث ، الا أنني مشيت على ما رسمه الاولون من الوزن والقافية ، وتحررت حقيقة ، من الافكار القديمة والبست العافية ثوبا جديدا ، لارتاد الطريق ، ولا اشق على السابلة من الشعراء السير فيه ..

لكن قد حسب هذا النفر .. انني أدعو الى التجديد حتى في هذا الوزن فنبذوه وأدعو الى التجديد في القافية فتركوها .. وها هوذا شعري بين يديك : اتحداك ان تطالعني فيه ببيت واحد خلا من الوزن او ند عن القافية ، او شرد عما وضعه العرب من قوانين ، تحكم البناء الشعري ، وتربط قواعده ..

قال اصحابي جميعا : الراي لك ... فيمن تنقد او تحب ، والرأي لنا في حياتنا ... كل ما نرجوه ان يوفقك الله وتترك حياة الادب لا سيما وقد شارفت على الخمسين ، دون ضيعة او عمارة ، ونخشى عليك ان تقضي حياتك كما قضاها العقاد ، هينة على الناس ، وان كانت غالية على نفسه ؟

قلت يا أولادي دعوني وشأني ، فقد جاوزت الساعة الان الرابعة من صباح اليوم دون ان اقرأ شيئا أو اكتب شيئا ، أو أعيش مع هؤلاء الذين أحبهم حبي للحياة ...

القاهرة

ابو طالب زيان

قصة مجهولة

من خلل الدموع ، خلف السواد
أرى بعينيك بقايا الرماد
ما زال وهج بالامس ، مغرورقا
بالدمع ، يروي قصة من سهاد

وألف جرح راقد في الطوى
أطل كالافعى ، سخين الدم
دفنته ، طويت أسراره
في الصدر ، في الاعماق ، في المبهم

قرأت في عينيك أسطورة
دامية ... مجروحة الكبرياء
قرأت جرحي فيهما ، انني
ألمح في عينيك وهج الدماء

كم قصة شيطانية ، لم تزل
تأكل من روحي .. ومن أدمعي
تحفر وجداني ، ولا تأتلي
تنخر كاللعنة ، في أضلعي

تكلمي يكاد يطفى الاسى
يطل من ماضيك ، نورا ونار
وحدثي ، فالبوح طهر الهوى
البوح انسانية ، وانتصار

عمان ــ الاردن راضي صدوق



نسيم نصر

من ذكريات معلم

بقلم نسيم نصر

* * *

« ... والذكريات صدى السنين الحاكي » ، ولكن الاصداء تختلف باختلاف مصادرها ، وما تذكرت عهدا من عمري في حمص الا تراكضت نحوي اطياف ماض زاخر بالعبر والدروس ، او حافل بعرائس من أيام العمر .

لا أدري ما الذي أغضب الاقدار ، في منتصف ليلة الثاني من شباط سنة ١٩٣١ ، فصبت غضبها على قلب مدينة حمص ، فاذا بمحلة بستان الديوان تهب مذعورة على ازيز لهيب النار ، وقد شبت تلتهم الكلية الارثوذكسية من جهاتها الاربع ، وتعالت السنتها تلسع صفحات الغيوم التي كانت تلقي على الارض رشاشا خفيفا من مائها . ولكم اشتد الذعر بالمتراكضين الى حيث نزلت الكارثة عندما احاطوا بالبناية الضخمة المشتعلة ، فدوت في آذانهم نداءات الاستغاثة ، فكل من في الطابق الثالث من اساتذة وطلاب حصرتهم النار المتصاعدة من الطابق الارضي تسد عليهم طريق الخلاص بألسنتها الطويلة . ومتى عرفت ان الممرات الداخلية كانت مشحونة بالخزائن الخشبية ، وان الشبابيك الخارجية كانت مشبوكة بطلبان ثخينة من الحديد أدخلت اطراف قضبانها في الجوانب الحجرية ادخالا محكما عند بنائها ، عرفت في اي وضع هائل يائس كان زهاء مئة شخص من معلمين وطلاب ينتظرون ، دقيقة دقيقة ، ان تصل اليهم النار المتدافعة السنتها الرهيبة نحوهم . ولم يكن من منفذ يرجى للخلاص ، من هذا الجحيم الزاحف ، الا اذا استطاعت بطولة احد المهددين بالنار ان تفتح طريقا للخروج ، في احدى النوافذ المحصنة بالحديد ، فما نعرفه اليوم من اجهزة الاطفاء ، رجالا وآلة لم يكن له من اثر في ذلك الليل المريع . وكان محقق البطولة النادرة ، في فتح المنفذ الخلاصي بين القضبان الحديدية ، الشماس الياس معوض ، الطالب الثانوي آنئذ ، ومتروبوليت حلب للروم الارثوذكس اليوم ، اذ أدى وحده مهمة سرية اطفاء .

وهكذا استطاع ذلك الحشد اليائس ان ينحدر على حبال النجاة التي مدت اليه ، عبر النافذة الخلاصية ، وان ينجو في مثل اعجوبة ، من تلك الميتة الهائلة . وكان تلك الكارثة كانت امتحانا جديدا لاريحية الحمصيين : المقيمين والمهاجرين ، ولا سيما المهاجرون الى البرازيل ، اذ لم يمر على ذلك الرعب التاريخي غير اربعة اشهر حتى عاد ذلك الصرح التربوي افضل مما كان . كل ذلك مر كالاسطورة دون ان يتوقف العمل المدرسي سوى اسبوع واحد .

ولنحاول الان ان نخفف من هول ما وصفنا فنحدث بذكرى من ابعد الذكريات مدى في الاشارة الى مكانة حمص في دنيا الادب العربي ، قديما وحديثا .

في ايار من سنة ١٩٣١ ، وفي حضن من أحضان الطبيعة الحالمة على جنب من الجنبات الخضر من ضواحي عروس الوعر ، كنا ثلاثة : حمصيين ولبنانيا ، انتحينا ضفة من ضفاف العاصي ، تخيرنا منها المتنزه المعروف بـ « الميماس » . وهناك جلسنا نتجاذب اطراف الحديث . وفيما نحن كذلك ، قلت لاحدنا ، وكان اسمه عبدالسلام : كأني بسميك الشاعر الحمصي ، صاحب الفدوات والروحات الى هذا المكان ، منذ اكثر من الف ومئة سنة ، يتراءى لي الان هائما نادما بعد زهوه وعربدته ! قال صاحبي : ومن هو سميي الذي تعنيه؟ قلت : هو عبدالسلام بن رغبان ، المكنى بأبي محمد ، والمنتسب الى تميم ، والملقب بـ « ديك الجن » . كان شاعرا خمريا ، اتصل صيته بأبي نواس شاعر الخمرة الاكبر في العربية ، فمر به وزاره ونادمه ، وربما في هذا المكان . وأعجب ابو نواس بخمرية لديك الجن ، لامست هوى في نفسه لما فيها من عبث وجودة ووصف ، أذكر منها هذه الابيات :

بها غير معدول ، فداو خمارها ... وصل بخيالات الفبوق ابتكارها
ونل من عظيم الوزر كل عظيمة ... اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفه ... من الشمس او من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحنا ... فتأخذ من اقدامنا الراح ثارها
موردة من كف ظبي كأنما ... تناولها من خده فادارها

* راجع عدد اغسطس ١٩٦٦

مشرد

•

انا مارد عالي الجبين
انا صرخة الحق المبين
انا صخرة قد حطمت
خطط البغاة الظالمين
انا .. في زوايا خيمتي
السوداء .. أهزأ بالسنين
وتمدني باللقمة العفناء
ايدي الظالمين
لكي الين ..
ولا الين

قسما بتربك يا بلادي
قسم المشوق الى الجلاد
قسما بقدسك
بالدماء المهرقات على الوهاد
ما ذلني يومي وملء
الامس اوسمة الجهاد

مل الرقاد سواد ليلي
فمتى يناديني المنادي

الفجر يبزغ فارقبي
يا امتي الحدث الخطير
جيش واعلام تسير
غدا .. متى دوى النفير
الفجر يبزغ انه
ميلاد قوة للاسير
آمنت بالوطن الكبير
ليمسح العار الكبير

الفجر .. يا حلم الجدود
وصيحة الحر الشهيد
فوق المشانق : في المجازر ..
في السهول .. على النجود
هيا اطلوا من اعاليكم
على الفجر الجديد

فسيشتري دمكم لنا
عز الكرامة والخلود

يا ظلم .. يا جاني على
الاحرار تشريدا ونكدا
اظننت انك مستطيع
ان ترد الحر عبدا ..؟
أنسيت أنا نسل من
ملكوا الدنى شهبا وأسدا ..؟
يا ظلم زد تجريحنا
حتى يثير القدح وقدا

قسما بتربك يا بلادي
قسم المشوق الى الجلاد
مل الرقاد سواد ليلي
فمتى يناديني المنادي

اسمى طوبي

قال صاحبي : وعلام ندم ديك الجن فهام بعد زهوه وعربدته ؟

قلت : أحب ديك الجن جارية اسمها دنيا ، فكانت دنياه ، لحسنها وموقعها من نفسه ، فتزوجها ونعما زمنا بحبهما وزواجهما . ثم ترامى الى الشاعر او تراءى له ان دنياه تخونه مع غلام كان في خدمتهما . وفي ثورة ، من ثورات الغيرة المحرقة المجنونة ، قتلها وقتل الغلام . ولم يلبث طويلا حتى تكشف له ان زوجته دنيا كانت أمينة له ، وأنه قتلها ظلما وتسرعا . فندم وهام على وجهه ، وكم ترددت في جنبات هذا المكان الذي نحن فيه، الميماس، ابيات الاسف والندم التي نظمها في وصف حاله ، قال :

يا طلعة طلع الحمام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما ... روى الهوى شفتي من شفتيها
مكنت سيفي من مجال وشاحها ... ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطئ الثرى ... شيء اعز علي من نعليها
ما كان قتلتها لاني لم اكن ... ابكي اذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على سواي بحبها ... وانفت من نظر الغلام اليها

وكان ، بعد ، أثارة كبرياء صاحبنا بما سمع من ذكر سميه وشعره ، ان مضينا في المامات بشأن هذه المدينة العريقة في القدم . وانها ، وان سماها بعض ابنائها « مدينة الحجارة السود » ، فان لها في دنيا الادب العربي صفحات بيضاء . منها هؤلاء الرواد الماهرون الذين عبدوا لما ننعم به اليوم من تطور فكري وفني . ومن هؤلاء ، الذين رافقوا ابا خليل القباني ، في اواسط القرن التاسع عشر ، في دمشق ، وأعانوه على المغناة المسرحية ، داود قسطنطين الخوري ، المعروف بـ « المعلم »الحمصي، وعبد الهادي الوفائي ، ويوسف شاهين ومحمد بن خالد الشلبي . أجل كان هؤلاء المدرسة التي تابعت ، في حمص ، جهد القباني ، الذي ترك دمشق الى مصر .

واما في فجر النهضة الحديثة فنكتفي بالاشارة الى شاعر كبير اعترف له بأنه شاعر غور فكري وانساني ، وانه كان من النفر البارزين في « الرابطة القلمية » مفخرة الادب العربي الحديث في المهجر ، هو نسيب عريضة .

نسيم نصر

قصة

الفنانة عايدة

بقلم حسني سيد لبيب

استعدت الفرقة الموسيقية لتصاحب عايدة في رقصتها . حملوا آلاتهم الموسيقية واستعدوا للعزف في حماسة بالغة ، فعايدة هي الراقصة الوحيدة التي يعجب بها الرواد .. وبالتالي ، هي مصدر الرزق للفرقة. ولكن واحدا من الفرقة لم ينجح في ان يشاركهم حماسهم ... فرج يشترك معهم لاول مرة ، وقد اضطر الى ذلك لضرورة العيش بعد ان انسدت امامه مسالك الرزق ، ولم يجد له عملا يرتزق منه الا الدق على الطبلة مع افراد الفرقة الموسيقية

والمتفرجون يتطلعون بعيون مشتاقة وانفاس مترقبة . نظروا الى الفرقة الموسيقية وهي تستعد للعزف ، فاعتبروا ذلك دليلا على ان عايدة هي التي سترقص .. كما انها اخر نمرة في الحفلة ، فلا بد أن تكون نمرتها .. ومعظم المتفرجين يرتدون الجلابيب ، فالمسرح متواضع لا يكلفك سوى قرش واحد ، كرامة لسيدي اسماعيل الانبابي ، كما يقول الرجل الفارع الطول ، الواقف على ترابيزة عالية امام مدخل المسرح ، ولا يكف عن الدعاية للفرقة وبرنامجها .

ــ قرب يا جدع .. قرب يا افندي .. هنا فرقة الفنون الشعبية ..الفرقة التي قدمت حفلاتها في الاسكندرية واسوان والسويس والمنصورة وجميع انحاء مصر .. الفرقة تقدم الليلة حفلتها لاجل سيدي اسماعيل الانبابي .. كان ثمن التذكرة خمسة عشر قرشا ، لكن كرامة لمولد سيدي اسماعيل .. جعلت الادارة ثمن التذكرة قرش صاغ واحد .. قرب يا جدع .. قرب يا افندي .. قرب وشوف رقص الفنانة عايدة .. فنانة المسرح والسينما والاذاعة .. هنا الرقص .. هنا الطرب .. هنا الغناء ..

ثم يعود ويكرر ما قال ، لقد حفظ الكلمات لكثرة تكرارها ..وقد يكون في كلامه شيء من المبالغة ، لكن الناس سرعان ما تستميلهم تلك النغمة ، ويدخلون دفعات متتالية وقد أغراهم هذا الاعلان .. وايضا حبا في قضاء ليلة ممتعة مرحة .

استعدت الفرقة الموسيقية للعزف . وخلفها ستار قديم يحجب مطربي الفرقة وفنانيها .. وبعد فترة انتظار قصيرة ملها المتفرجون ، أعلن مذيع الفرقة :

والان ــ ننتقل بكم الى الرقص .. اليكم الفنانة عايدة فرج .

وظهرت عايدة بلباس الرقص وسط تصفيق المتفرجين . نظر المتفرجون الى تلك المراة الجميلة التي ظهرت تتمتع بملامح جذابة ، وجسد متسق .. تقف امامهم بلباس الرقص . وكان يكفي للمتفرجين ان يروا عايدة لتنطلق من حناجرهم عبارات الاعجاب .

بدات الفرقة الموسيقية في العزف . وبدات عايدة تمرن جسمها اللين على الرقص ، وذلك بحركات راقصة بطيئة .. وشفتاها تبتسمان كعادتها ، تبتسمان لعبارات الاعجاب التي تسمعها ، فلقد اعتادت على ان تظهر بلباس الرقص ، وتكشف جسمها .. كي ترضي جمهورها الجائع . لكنها اليوم قلقة ، فأبوها يمسك الطبلة لاول مرة ليصاحب الفرقة في عزفها .. حاولت جاهدة ان تمحو هذا القلق ، او تتناساه .. حتى تستطيع ان ترقص .. ففي بداية الرقص ، احست بقلق .. لكنها سرعان ما تناست قلقها وركزت حواسها لايقاعات الموسيقى ، وبمعنى أوضح .. لهزات معينة تتقنها ويطرب لها الحاضرون .

وبعد فترة قصيرة ، لم تسمع صوت دقات الطبلة .. التفتت الى أبيها ، فوجدته شاردا والطبلة في يديه . نظرت اليه نظرات حادة ، لكنه لم يحرك ساكنا ، وتأمل عايدة وهي تتلوى بجسدها يمينا وشمالا .. وصيحات الذئاب الجائعة تخرق طبلة اذنه ، وتشل يديه ، فلا يستطيع ان يفعل شيئا سوى الاكتئاب والحزن الصامت .

لحظ الجمهور شرود الرجل واكتئابه .. فتصايحوا مشيرين اليه ..

ــ القوا به بعيدا .. ابعدوه ..

التفتت عايدة اليه ، وقالت بنبرة حادة آمرة :

ــ دق الطبلة .

لكنه لم يفعل . ونظر اليها نظرات حزينة لم تستطع ان تفهم ما يقصده بها . غضبت منه ، وتمنت لو تستطيع ان تركله بقدمها .. انها لا تستطيع ان تهتز هزاتها المعتادة الا بدقات الطبلة ، والجمهور لا يريد سوى تلك الهزات الجنسية . تأزم الموقف ، واشتد صياح الجمهور ، وعم الغضب كيانها كله . واعضاء الفرقة يزجرونه بنظراتهم العنيفة .. لكنه ظل صامتا .

اخيرا نهض عبد الله عن كرسيه وترك الرق ، وتطوع بامساك فرج في عنف ، والقائه خلف المسرح .. ثم امسك بالطبلة ليدق عليها ، واستطاع واحد من افراد الفرقة ان يضرب على الرق بدلا منه .

انبسطت أريحيتها حين سمعت دقات الطبلة ، وعادت الى الرقص .. وانطلقت صيحات الجمهور وعبارات الاعجاب .

انتهت من الرقص واختفت عن الانظار . لكنها لم تجد اباها . سألت عنه ، فعرفت انه خرج ولم يقل عن وجهته . فأطمأنت الى انه ذهب ليستريح في البيت . لكنها تذكرت انه لا يحمل قرشا واحدا يركب به السيارة ، ثم عادت واقنعت نفسها بأنه من الممكن ان يمشي على قدميه .. ولو ان المسافة بعيدة بين امبابة والقلعة .

انتصف الليل ، وانتهت آخر حفلات الفرقة .. ووزع عبد الله على افراد الفرقة اجورهم . نقد عايدة اجرها وقال مبتسما .

ـ لك نصيب الاسد .. لا تنسي انك مصدر رزقنا .

ولكن احمد نظر اليه نظرات حانقة وقال :

ـ كلنا نسهم في جذب الزبائن .. لا تنسى ان زكي يرضى بطمس وجهه بلون اسود ، ويرضى بالضرب على قفاه .. أليس هذا من أجلنا أيضا ؟ . ألا يضحك الجمهور من تمثيله ؟. وأيضا فاطمة التي تنشد الموال ، الم يصفق لها الجمهور طويلا ؟ .

لم تتكلم عايدة . وعاد عبد الله وقال :

ـ كلنا نحاول جلب الزبائن بأية وسيلة .. حتى لو كانت على حساب كرامتنا .

قال احمد في غضب :

ـ لا يا عبده .. نحن نعمل .. والشغل شرف . نحن نعرق من أجل هذه القروش التي نتقاضاها في نصف الليل .

كان عبد الله حريصا على ارضاء احمد . فلم يحاول ان يعنف القول معه ، وآثر الصمت .

ركبت السيارة العامة مع افراد الفرقة . وتوجهوا جميعا الى القلعة .. وهناك ، ودعتهم ومشت وحدها في زقاق ضيق الى ان وصلت الى بيت قديم متآكل ، فصعدت الى السطح حيث تقبع غرفة صغيرة تؤويها هي واباها .

جاست الظلام في هدوء ولم تشأ ان تحدث جلبة او ضوضاء ، فلربما يكون ابوها نائما . اشعلت مصباح الغاز . فألفت اباها يجلس على الارض ..

ـ ألم تنم ؟ .

دقق النظر في جسمها الملفوف بثوب عاري الاكتاف . ظل محملقا ولم يتكلم . صرخت فزعة :

ـ تكلم .. أنت تخيفني بتلك النظرات .. لماذا انت صامت ؟. تكلم .. قبل اي شيء .

ومرت فترة صمت رهيبة ، قبل ان يتكلم ..

ـ لا بد انك ساخطة على أبيك !

ـ طبعا ..

ـ كنت احاول ان اعمل بنفسي ، حتى ترد الي بعض الكرامة .. تلك الكرامة التي افتقدتها منذ اطعمتني ، كالطفل .. مع فارق كبير .

ـ لا تقل هذا . لا تزعجني .

ـ حاولت ان ارد بعض الكرامة .. لكن فقدت حتى الشعور بمعناها .. تبلد احساسي .

ـ لذلك لم تدق على الطبلة !

ـ لم احاول ذلك . لكني تبلدت .. جمدت . افزعني منظر الذئاب الجائعة التي تلتهم جسدك بغرائزها .

ـ هذا ما يحدث كل يوم . وهؤلاء مصدر رزقنا .

بصق في احد اركان الغرفة ، وصاح :

ـ هؤلاء الذئاب ! .

ـ ذئاب ام وحوش .. فهم الذين يطعموننا .

ـ أجل .. هم الذين يطعموننا .. الهي ! .. ما أبخس هذه الحياة !

والتفت الى عايدة . وجاهد نفسه ليلمس كتفها باصابعه ، تحركت يده بصعوبة .. ودقق النظر في جسمها الممتلىء ، وقال مبتسما :

ـ انت فتاة حلوة ، وجميلة ..

ابتعدت عنه ونفرت من كلماته .. صاحت في ضيق :

ـ أبي .. اتعبتني كلماتك . الا تريحني منها ؟

ـ لن اريحك منها الا بموتي .. سأنتحر .. وستستريحين مني .. أجل ، ليست لحياتي قيمة ..

ـ اخبرتني انك ستنتحر كثيرا .. لكنك لا تنتحر .. لماذا اذن تزعجني بهذه الكلمة ؟ تستطيع ان تأكل وتشرب وتنام ، فقط لا تتكلم .. ان كلماتك تتعبني .

صمت ، ولم يرد في هذه المرة .

خلعت ثوبها وارتدت الجلباب ، وقالت :

ـ ماتت امي .. وتركت لنا بيتا ، وكنت تعمل في دكان صغيرة .. لكنك شربت الخمر ، ولعبت القمار .. ولم تجد حلا الا بيع البيت والدكان معا ..

ولو ان عايدة دققت النظر في وجه ابيها ، لوجدت دموعا جامدة تنحدر ببطء على خديه . لكنها القت بجسدها المتعب على الفراش ، ولم تشأ ان تنظر الى وجه أبيها الحزين ، فأولته ظهرها .. وحاولت ان تجفل عينيها ، كي تنام ..

غلبها النعاس ، لكن قلقها جعلها تستيقظ من فترة لاخرى . فما ان يجفل جفناها حتى تستيقظ ثانية . واحست وهي شبه نائمة بالغرفة تشتعل فيها النيران ، لكنها لم تفزع من هذا الحلم .. ثم عادت الى يقظتها، لكنها تعجبت لان الحائط ما زال يضيء ، عاكسا بذلك منظر نيران مشتعلة .. فزعت ... وحاولت ان تتيقن من ذلك ، فجمعت اطراف شجاعتها والتفتت الى الناحية الاخرى .. وما ان نظرت الى النيران المشتعلة ، حتى صرخت صراخا عاليا .. فأبوها امامها تحرقه النيران .. قفزت من فراشها .. وامسكت بالغطاء والقته على جسد ابيها . لكنها وقعت فوق جسده المحترق .. فقد فات الاوان .. لقد احترق .. ليس امامها الا الرماد .. صرخت صرخات عالية

من هول المفاجأة ، ثم انكفأت على الفراش تبكي حتى اصابها اغماء . وكان صراخها كفيلا بايقاظ الجيران .. فجاءوا يستطلعون الخبر ..

انها تعيش وحدها فيغرفة حقيرة على السطح . احترق ابوها . لعله بهذا ينتقم من نفسه الحقيرة .. كان يدمن الخمر ولا يعود الى البيت الا في الهزيع الاخير من الليل . ويفقد كثيرا من النقود على مائدة القمار . لم تنفع نصائح زوجته في ردعه عن شرب الخمر ولعب القمار ، فمرضت الزوجة وماتت كمدا . وعاش مع ابنته حزينا لموت زوجته ، واضطره هذا الحزن الى الاكثار من شرب الخمر ... حتى ساءت حالته المالية وتورط في ديون كثيرة اضطرته الى بيع البيت الذي كانت تملكه زوجته الراحلة . وتلا ذلك بيع دكانه الصغيرة . وعاشا في غرفة صغيرة على السطح .

كادت عايدة تضيق بحياتها في كنف اب سكير . لولا ان جاءها عبد الله – صديق والدها – واخبرها انها تصلح للرقص .. فهي فتاة شابة جميلة . ويكفي ذلك كي تنجح كراقصة تجيد فن الاغراء .

كانت تتضايق من رائحة الخمر التي تفوح من فمه ، فتستثيره بكلمات قاسية .. لكنه يواجهها بجمود ... ويبتز نقودها ليشرب الخمر ، ويعود في المساء مخمورا . تعذبت عايدة لحال ابيها ، فاضطرت الى ان تكثر من كلماتها العنيفة ، لكنه يتلقاها بجمود ، ويؤكد لها انه سينتحر ويريحها . فزعت حين سمعت عزمه على الانتحار لاول مرة ، وامتنعت عن زجره بكلماتها العنيفة .. لكنها اضطرت الى استعمالها ثانية ، فقد ساءت حاله .. لكنه اكد لها عزمه على الانتحار . واعتادت ان تسمع منه هذا التأكيد ، حتى بات نغمةمملة تتعب اذنيها .

لقد مات ابوها .. احترق .. في آخر مرة صدق تأكيده وانتحر . ربما كان يفكر في الانتحار من مدة طويلة ، لكنه لم ينتحر الا منذ ايام قليلة ، حين خاض تجربة العمل مع الفرقة . انها تستعيد ما حدث في ذلك اليوم بمرارة وألم ، فقد اعلن لها رغبته في ان يعمل حتى يرد لنفسه بعض كرامتها ، فدفعت به الى الفرقة .. ويبدو ان ضميره الميت لم يستيقظ الا على خشبة المسرح المتواضع ، حين سمع صيحات الذئاب .. ورأى عيونهم تلهب جسدها . ربما انتحر لفقده الكرامة ، وفقده الشعور بمعناها كما قال لها في ذلك اليوم .

وايا كانت الاسباب ، فالحدث اكبر من ان يفكر فيه انسان .. لقد انتحر ابوها .. كانت ترقص من اجل ان تاتي له بقروش يفرح بها كالطفل . لكنها اليوم تعيش وحدها .. لقد افتقدت لذة العمل .. فقد كانت تعمل من اجل اطعامه . لكنها اليوم تعيش وحدها بلا اب .. وبلا أم .

هجرت الفرقة ، ولم تعد راغبة في العمل ، وساءت صحتها ، كان السعال يمزق صدرها .. وعاشت ليلها ونهارها تبكي حياتها التعسة . ولم تعد تطيق عزلتها في الغرفة سوى خمسة ايام بعد وفاة ابيها . ثم خرجت الى ضوضاء المدينة ، ولا تدري الى اين هي ذاهبة ! ..

جاءتها فكرة الانتحار حيناقتربت من احد الجسور . نظرت الى الماء وهمت بالقاء نفسها فيه . كانت تعيش من اجل ابيها .. والان .. لماذا تعيش ؟! .. ظل السؤال يقلقها ويدفعها الى الانتحار . وفي لحظات ، تنتهي حياتها وتستريح . ستحتضنها المياه الدافئة وتغوص في قاع النهر ، وتصبح لحما تنهشه الاسماك .. لكنها تذكرت عبد الله الذي جاءها في الصباح . انها تذكر ما قاله لها :

– أصبحنا بدونك لا شيء .. قل الرواد .. وأصبحنا نتلقى السخط والشتائم كل مساء .. حاولت عائشة ان ترتدي لباس الرقص بدلا منك .. لكن الجمهور قابلها بالصفير والصياح ، فجسمها هزيل ، ولا تجيد الا الفناء .. كانوا يريدونك .. لقد هتفوا باسمك .. تصوري ! .. لماذا ترددين ؟ .. لقد انتحر أبوك .. فما ذنبنا نحن ؟ .. بل ما ذنبك أنت في ذلك حتى تعيشي هكذا معدمة لا تجدين طعام عشائك .. عودي يا عايدة .. اذا كنت في غير حاجة الى النقود ، فنحن في حاجة اليها ، لنعيش ! ..

صمتت عايدة ولم تتكلم ..

– ما رأيك ؟.

– لن ارقص ..

تبلد عبد الله في مكانه . لم يستطع ان يتكلم كلمة واحدة بعد ان سمع رأيها الاخير ، انه يعنى الاصرار . لكنه عاد فنظر اليها نظرات حانية ثم قال :

– البقية في حياتك ، لانك افتقدت اباك .. والبقية في حياتنا ، لاننا افتقدناك .. فهل تظنين ان الفرقة كلها قادرة علىالحياة بدونك ؟

لم تتكلم عايدة ، بينما عبد الله يقف امامها حائرا لا يدري ماذا يفعل ؟ .. وبعد فترة عصيبة ، اخرج نصف جنيه والقاه على المنضده وقال لها :

– هذه خمسون قرشا ، لتعيشي منها .. فأنا اعلم انك في حاجة اليها .. واذا فكرت في العودة ، فسنكون سعداء ..

وتركها وحدهاصامتة ، وخرج ..

انها تتذكر هذا كله ، وتعيه .. نظرت الى الماء فجمدت في مكانها ، وشلت اعضاؤها عن الحركة .. ان اربعة رجال وثلاث نساء ينتظرون عودتها .. ان انتحارها سيسبب لهم الشقاء والتعاسة .. هي مصدر رزقهم .. هي القيمة الحقيقية للفرقة . لقد قالوا لها ذلك ولم يبخلوا عليها بكلمات التقدير .. كما بدأوا يعطونها اجرا اكبر مناجورهم ،

اغنية للشتاء الحزين

بالامس يا صديقتي قد زارني الشتاء
هناك حيث كان سوف يزهر اللقاء
جلست يا صديقتي والدفء في كياني
وغنوة اللقاء يا أنشودة الزمان
هناك يا حبيبتي انتظرت وانتظرت
وكلما صديقتي بساعتي نظرت
وعقربا سويعتي بالصدر ينهشان
أأنت يا حبيبتي علي والزمان
وفجأة لمحته .. هذا هو الشتاء
وقرب قلبي الذي ثوى .. بلا غطاء
وبغتة صديقتي .. سمعت صرختين
ورن في الضلوع هاتف يقول : أين
هنيهة ، وبعدها .. هوى على التراب
يموت بعدما شدا بغنوة العذاب
النائب الحزين يا حبيبتي حضر
جناحه الهزيل مال غاله المطر
البرد يا حبيبتي ينساب في ضلوعي
وأدمع السماء يا هاجرتي دموعي
وهكذا تركتني تركتني هناك
هناك حيث زارني الشتاء والملاك
من يومها حبيبتي .. أحيا مع الشتاء
من يومها أنشودتي ، أهفو الى اللقاء

هناك فوق مقعد بظاهر المدينه
المطلع السعيد في أغنية حزينه
والقلب من سروره يفيض بالحنان
ينساب بالنعيم همسها على لساني
والموعد السعيد حل وقته وفات
أحسست بالضياع بالزوال بالموات
وينفثان السم في فؤادي الحزين
كم أنت يا أغرودة الفؤاد تظلمين
ينساب يا حبيبتي ، يدب في سكون
قد نام يا صديقتي قد أسبل الجفون
أصداهما قد مزقت ستائر الغسق
أين الذي يصيح ، ثم لفني القلق
الطائر الغريب .. يا لقسوة المقادر
وكان في عيونه شقاء ألف شاعر
أتى مع الشتاء والصقيع فاعتذر
وحين مات جلجلت رواعد القدر
والمقعد الحزين .. في برودة القبور
والرعد صوت عاشق معذب يشور
للبرد فوق مقعد بظاهر المدينه
هذا الذي قد جاء بالرسالة الحزينه
من يومها صديقتي .. أعانق الصقيع
يجيء بالضياء ، بالحنان ، بالربيع

القاهرة

عبد المنعم عواد يوسف

حتى لا تفكر في هجرهم .

ان السبعة في حاجة اليها .. استعادت في ذهنها حال افراد الفرقة التعسة .. ثم افاقت على صوت شاب رقيع يغازلها . نظرت اليه نظرات شذرة وتذكرت اصوات شبان مثله ، نفس الكلمات التي تسمعها اثناء الرقص ، وان تغيرت حروفها وتبدلت .. نفس المعنى .. انها شيء حقير .. ولكن ! .. ان سبعة آدميين يتمنون ان تعود اليهم !

مشت عايدة الى امبابة . ليس في جيبها مليم واحد . نسيت ان تأخذ الخمسين قرشا التي تركها لها عبد الله . واضطرت الى المسير على قدميها في برودة الشتاء وقسوته .

ما ان رآها افراد الفرقة حتى صاحوا مشدوهين . فلقد حمل لهم عبد الله في الصباح اصرارها على الرفض .. نظرت اليها عائشة مليا وصاحت :

– عدت الينا ! .. لقد فشلت في اداء دورك .. واصبح ظهوري بلباس الرقص يسبب لي متاعب كثيرة .

ابتسمت لها عايدة . وصاح عبد الله :

– اراهن انها جاءت من اجلنا .. انها سترقص من أجلنا ، من أجلنا .. افهمتم ؟! ..

وحاولت دمعتان جائرتان ان تنهملا من عينيها ، لكنها حبستهما لتستعد للرقص . وفي خارج المسرح ، يقف الرجل الفارغ الطول ، مشمرا ساعديه ، معلنا في فرح وزهو :

– قرب يا جدع .. قرب يا افندي .. هنا فرقة الفنون الشعبية .. الفرقة التي قدمت حفلاتها في الاسكندرية واسوان والسويس والمنصورة ، وجميع أنحاء مصر .. قرب وشوف رقص الفنانة عايدة بعد عودتها من اوروبا ! . كانت الفنانة في رحلة فنية ! .. وها هي تعود اليكم ثانية .. الراقصة الكبيرة عايدة .. قرب يا جدع .. قرب يا افندي .. هنا الرقص .. هنا الطرب .. هنا الغناء .. عادت الفنانة عايدة من اوروبا ! ..

وفي آخر الليل ، امتلأت جيوب افراد الفرقة بالنقود ! .

القاهرة

حسني سيد لبيب

بين السخرية والضحك

بقلم مصطفى درويش الدباغ

* * *

حقا ان الانسان حيوان ضاحك ، ومضحك في آن واحد ، انه ضاحك حين يشاهد الغفلة في الآخرين والتيبس والآلية ، وعدم المرونة واللدونة ، والشذوذ عن الطبيعة الانسانية والاجتماعية ، والقياس مع الفارق والعبث ومخالفة القصد ، فيتنبه حسه ، وتتيقظ أعصابه لهذه المفارقات المستديمة ، فيمعن في الضحك ، متأثرا بما شاهده ، ووقف بالانسان موقف جمود وعبث ...

يشاهد الاديب ، أو الشاعر ، منظرا مضحكا ، او مشهدا يتنافى مع طبيعة الحياة وسنتها ، فيجري قلمه ضاحكا على الورق ، يثب وثبا ، مسجلا ما رآه ، مبينا نواحي الضعف فيه ، لان طبيعته مفطورة على حب الكمال ، والكمال في الحياة هو الجمال ..

فالضحك لازمة من لوازم الحياة ، لانه تأديب ، وتثقيف ، وتهذيب ، يردع الانسان عن الغفلة والترسب ، والتحجر ، لينطلق به الى سنن الحياة المتيقظة الواعية ، سواء كان متحدثا ، او كاتبا ، او مدليا برأي من الامور ، وفي كل ما يتعلق بجميع مشاكل الحياة ، مادية ، او معنوية ، على اختلاف انواعها ... يغالبنا الضحك في مجلس ، اذا ما غفل أحد افراده عن التنبه واليقظة ، فيما يدلي به ، من رأي فطير غير خمير ، لا صلة له بالبحث المخاض فيه ، وباعث الضحك هو الغفلة ، وعدم المرونة ، والمطاوعة ، والاندماج مع روح المجلس اندماجا كليا ، قعد به عن استشفاف روحه ، سواء كانت الغفلة من آثار علة ، او ذهولا ، انطلق به الى جو آخر ، جعله حاضر التمثال ، غائب المثال ..

ونضحك من رجل انزلق في عرض الطريق ، فوقع على قفاه ، فيما كان يصوب نظره الى الافق البعيد ، حالما ذاهلا ، دون ان يتفادى ما أمامه ، فيتجاوزه ، لان الآلية ، وطواعية جسمه للعثرة ، والغفلة ، اوقعه كل هذا في المأزق الحرج ، فاستبد بنا الضحك ، لمخالفة هذا المنظر ، مألوف الحياة ، وشذوذه عن الطريق السوي ، ولأحساسنا بالاطمئنان النفسي ، اذ لم تقع ، فيما وقع فيه من مكروه ..

ونضحك من لص يهاجم احدى المزارع ليلا ، لينهب محصولاتها ، دون ان يتنبه ، الى فخ كبير ، نصب في وسطها ، كان معدا لصيد الثعالب ، وبنات آوى ، فوقع على غفلة منه في الفخ ، مطبقا على عنقه ، موثقا يديه ، ورجليه ، حتى اذا ما أصبح الصباح ، بعد ان اعتصم بالصبر والاناة ، والخضوع لارادة القدر ، الذي دفع به الى التهلكة طيلة ليله ، حل عنه وثاقه ، وجيء بهموثوقا على صورة اخرى ، ليلاقي الجزاء ، على ما اقترفت يداه ، وقد وقعت هذه الحكاية في قرية من ضواحي يافا .

واذا ما ضحكنا من غفلة هذا اللص ، فانا نستشف الفكاهة والطرب ، من ثنيات المحاورة التالية التي جرت بين اللص والتاجر ، وكان موضع الفكاهة والتندر ، ذلك التاجر ، الذي أراد التحايل ، على اللص والانفلات ، من قبضته ، وذكاء اللص ، الذي استطاع ان يتمسك بالعرف والعادة ، والتقاليد ، أخفاء لنفسه ، ولطبيعته اللصوصية ، فأخذ يحاوره ويداوره ، والفريسة في يده ، كما تفعل الهرة مع الفأرة ، وهي تعبث بها ، وتندفع في مداعبتها ، وثابة تفيض بالحيوية ، لتمكنها من القنيصة ، لتلتهمها لقمة سائغة ، مهيئة الفرصة ، للفأرة ، ان تتزود من الحياة قليلا ، كما تهيأ الفرصة للمحكوم عليه بالاعدام والحبل مطبق على عنقه ، فيطلب منه ، ان يبين عن رغباته ، لتنفيذها ، قبل ان يطبق الحبل على عنقه .

فقد روي ان تعرض لص في طريق مهجور ، لتاجر ، وطلب منه ان يخلع ثيابه قائلا : انني أولى بثيابك منك ، لاني أخوك ، وعريان ، وأنت مكس ، فلقد لبست ثيابك برهة من الزمن ، وأنا أريد ان ألبسها كما لبستها ... لقد وعده الرجل ، ان يسلمه الثياب ، بعد ان يصل الى الدار مستورا ، فأجابه اللص : اني درست أمر اللصوص ، منذ قديم الزمان ، حتى الآن ، فلم أجد لصا ، أخذ شيئا نسيئة ، وأكره ان ابتدع في الاسلام ، بدعة يكون علي وزرها .

ومن المضحكات السياسية ، اثناء اعتداء موسوليني — على الحبشة في سنة ١٩٣٥ ، ان عرض الوزير البريطاني عليه ، صحراء اوغادين — ، ليكف عن الاعتداء على أراضي الحبش ، فثارت ثائرة موسوليني — وادلى بخطاب في البرلمان الايطالي جاء من ضمنه ما معناه : ان الطليان ، بلاد الفن والنحت والتصوير والجمال ، ولسنا من هواة الصحاري والمستنقعات ، حتى يتفضل الوزير ويتكرم ، بأهدائنا صحراء مجدبة قاحلة رخيصة !!!. المضحك في هذا الخطاب هو العرض المعروض عليه ، لالهائه — بصحراء اوغادين — بديلا من سهول الحبشة ، وهضابها ، وثرواتها المكتنزة الخيرة ، والتنازل عن حيازة صيد ثمين بآخر رخيص ، والجانب الثاني هو اهداء من لا يملك تلك البلاد ، وبدون رغبة ، او توكيل من أهاليها ، الى من لا يملك هذا الحق ابتداء ، فكأن تجنيد تلك الحملة ، لم يكن الا للفوز بالعبث والفراغ ، والجانب الثالث المضحك هو : ان أهل الفن والموسيقى ، أكفاء لالتهام البلاد التي اضفى الله عليها ، مفاتن السحر والجمال ، وافاض عليها من خيراته وكنوزه ، ما لا يحيط به تعداد وحصر ، توكيدا للصلات الوثيقة ، ما بين الفن والجمال ، والكنوز

والخيرات ... وما كان موسوليني هذا ، الا مدفوعـ بأطماعه ، يسترها بذلك القناع الرهيف الشفاف ... قناع الفن والجمال ، كما استتر ذلك اللص، وراء التقاليد والعرف ، معتصما بها ، لتمسكه الشديد بلصوصيته ..

ومن المضحكات التي شاهدتها بيافا ، في احدى دور القضاء ، ان جاء محام ، يترافع امام المحكمة عن موكله ، وكان رئيسها انجليزيا ، ولما جاء دوره في المرافعة ، طلب رد الدعوى ابتداء ، دون الدخول بالاساس، لان المدعي ، وكان عمره ستين عاما ، لم يثبت رشده امام المحكمة الشرعية ، ويعتبر بحكم القاصر ، ولا يحق للقاصر ان يرفع الدعوى ، الا بواسطة وليه ، أو وصيه ، او اذا أثبت رشده ؟!! كان المحامي يتشدق في كلامه ، مزهوا بهذا الابتكار القانوني ، الذي اهتزت له أركان المحكمة ، ضحكا وسخرية ، وبرز سجال بين المحامي والترجمان ، فالترجمان مشفق على المحامي ، ان يعصف به غضب الرئيس اذا ما ترجم له هذا الدفاع الرخيص ، وطلب منه سحبه قبل ترجمته ، ولفتت هذه المشادة الرئيس وسأل : ماذا يقول المحامي، فما كان من الترجمان وهو يدير وجهه الى الرئيس ، مخاطبا المحامي قائلا : اتصر على الترجمة؟ فقال المحامي : اصر عليها ، وأمري موكول الى الله ... اخذ الترجمان في ترجمة الدفع ... وبعد ان شنف الرئيس اذنه بهذا الدفع العجيب ، أصبح في حالة غضب وضحك في آن واحد ، وخاطب المحامي قائلا : اتسحب هذا الدفاع ، أم أسحب روب المحاماة عن كتفك ؟ عندها تلاشى المحامي خجلا وقال : أسحب الدفاع برمته وادخل في اساس القضية ، راجيا ان يبقى الروب على كتفي !!!

ومن العبث الذي وقعت فيه ، وانا طالب فيمدرسة دار العلوم الاسلامية بيافا ، اذ اقيمت مباراة خطابية ، بين الطلاب ، طلب فيها من المتبارين ، ان يحفظوا قصائد شعرية ، لالقائها في الحفل الاسبوعي ، واخترت قصيدة عنترة العبسي التي جاء فيها :

حصاني كان دلال المنايا فخاض غبارها ، وشرى وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيبا يداوي راس ، من يشكو الصداعا

وتمرنت عليها ، وكنت انظر الى نفسي ، في المرآة اثناء التمرين ، لاعدل من بعض الاشارات ، واشذب من بعض الحركات ، واتمرن على المواقف ، التي يقتضيها التفخيم ، والاخرى التي يتطلبها الترخيم ، بحيث اصبحت والقصيدة كلا واحدا ، حتى خلتني عنترة العبسي الابيض ـ . وجاء يوم الالقاء ، وتبارى المتبارون ، وكلهم ينشد الجائزة ، وهي ساعة كنت أنشدها في احلامي ، والقيتها ، وحزت الاعجاب ، وبعد ان قلب المحكمون الرأي ، قرروا منحي الجائزة ، وناداني الاستاذ رحمه الله ، فهرولت مسرعا ، اشق الصفوف ، متباهيا ، واذ دانيت منضدته ، حيث تغفو الساعة قريرة هادئة ،صوبت عيني اليها فقال الاستاذ : نعم قررنا منحك الجائزة وهي هذه الساعة ، ولكن بدر منك ، وأنت مسرع ، حركة نابية ، اذ غمزت بعينك ، وحركت شفتيك ، وهذا نعتبره قلة أدب ، فأنا منعناها عنك : سامحه الله ... لقد وضع اللقمة في الفم ، ولكنه سرعان ان استردها .. فرجعت حزينا كاسف البال ، أحلم بتلك الساعة ، التي دقتجرس الحزن ، على حظي الضائع ، ورحم الله الشاعر اليازجي ابراهيم القائل في وصف الساعة :

لنا ساعة ، دقت لنا جرس الحزن ومحصية أعمارنا ، كلما انقضت
فهل أنت دون الناس منه على أمن فيا بنتهذا الدهر ـ قد سرت سيره

ورحم الله الشاعر القائل :

وان جروا الضاحكين منا علينا أيها الضاحكون منا ... سلاما
ثم عادت منا ... بكاء علينا كم بعثنا بضحكة ، فاستردت

عمان ـ الاردن مصطفى درويش الدباغ

انتظار

وبقيت انتظر المساء ... وموعدا حلوا ، وأجمع للحبيب القادم وردا صباحي الجمال ، رششته بدمي ، باشواق الفؤاد الحالم وفرشت بالاحلام درب حبيبة كالضوء لاحت في الظلام القاتم ووقفت أرقب والدجى متسائل حولي ، ومر الليل ، ليل الهائم أستطلع الافق البعيد ، فلا يد ترمي ، ولا ثغر يلوح كخاتم تتنابني الفصص العطاش ، ولا أرى حتى السراب ، يبل غلة واهم يا حلوة العينين ... أين الملتقى ذبلت أزاهيري وخضر براعمي ما كنت أحسب ان مثلك يخلف الميعاد في الفسق الحنون الناعم رحماك هذا الليل في صلواته متلهف لفد الصباح الباسم يصبو الى اللقيا ... فهلا ينتشي من وجدها ؟ ... وتهب بعض نسائم.

طرابلس محمد شمس الدين

مكتبة الاديب

محمد تيمور : حياتـه وأدبه

تأليف عباس خضر ـ ٣٠٧ صفحة ـ نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ـ مطبعة دار العهد الجديد بالقاهرة

الشخصية التي يدور حولها موضوع هذا الكتاب شخصية رائدة في حقل الادب عامـة ، والادب المسرحي بصفـة خـاصـة . والرائد لا بد ان يلقى في تمهيد الطريق من الصخور والاشـواك والمتاهات والمعوقات ما قد يدعو الى اليأس ، خاصة اذا كان في مجتمع متخلف ثقافيا وفكريا وفنيا ، يجحد الفن ، وينظر اليه بعين الاستنكار ، وينظر الى الفنانين بعين الازدراء ، باعتبارهم عالة على المجتمع ، باعتبارهم طائفة هازلة فارغة في مجتمع جاد كادح ، يسعى في سبيل لقمة العيش ، ولا شيء سوى لقمة العيش .

وزاد من حدة هذه الملامح في نظر المجتمع ما اصطنعه ادعياءالفن في هندامهم وسلوكهم ، حتى لم يعد يفصل بين الفنانين والمشعوذين في نظر الناس الا خيط دقيق يكاد يكون غير فاصل في حقيقة الامر. وزاد الامر سوءا ان الدولة لم تكن تمد للفن اي وسيلة من وسائل الرعاية او التأييد في مواجهة التحديات التي يلقاها كل وليد ناشيء يعيش على جهوده الذاتية في جمهور هذا مبلغ تقديره للفن .

حتى اذا بزغت النهضة الاخيرة التي عمت البلاد العربية وفي مقدمتها مصر ، مسحت عار اللامبالاة بالفن عن الدولة ، والامتهان الذي كان يلقاه من الجماهير ..ولقد وعت الدولة فيما وعت دور المسرح الطليعي في حياة الشعوب ، واعتبرته وسيلة من وسائل تنمية المجتمع وتطويره ، ومن هنا أصبحت مؤسسات المسرحوالتمثيل، ودوره ، ومعاهده تسير في الدولة النامية جنبا الى جنب مع مؤسسات الصناعة والزراعة والاقتصاد والتربية .

الى جانب هذا الوعي من جانب الدولة لدور المسرح ، كان هناك جيل من المكافحين الذين مهدوا الارض ، واقامـوا عليها ـ بجهودهم الفردية المضنية ـ دعائم للمسرح العربي الحديث ، وكان في مقدمة الرعيل الذي مهد للثورة الفنية الشاملة التي يعيشها جيلنا اليوم ـ ذلك الفنان الموهوب محمد تيمور والقلة من الفنانين القلائل الذين عاصروه وآزروه في مهب العواصف الجائحة .

فلقد استطاعوا بفرديتهم وبجهودهم الذاتية ان يقهروا هـذه التحديات ، وان يضعوا للفن دعائم ما زالت حتى اليوم تسند البناء الشامخ الذي يوشك ان يرتفع بانتاجنا المسرحي الى المستوىالعالمي. ولقد وقع محمد تيمور ، وامثاله من ابناء الاسر العريقة الذيـن اشتغلوا بالفن في هذه المرحلة المبكرة بين ضغطين :

الضغط الاول : نظرة المجتمع الى الفن بعين الازدراء ،والضغط الثاني : طبقة الارستقراطية ، التي اعتادت ان تترفع عن كل مـا يمارسه عامة الشعب او يحترفونه بوجه عام ، فضلا عن ان تكون هذه الحرفة هي « الفن »الذي يستهين به المجتمع ، فمحمد تيمور هـو ابن احمد تيمور باشا ، ابن اسماعيل بن محمد تيمور كاشف ،الذي جاء الى مصر مع الجنود العثمانيين الذين جاؤوا الى مصر في اعقاب الحملة الفرنسية ، وظل يترقى في الجندية حتى صار من كبار القواد ، ثم شغل منصب الكاشف ، التي تعادل منصب «المحافظ» اليوم ، وهذه الاسر الوافدة قد كونت فيما بعد طبقة تعد قمة الارستقراطية في ذلـك الوقت ، لا يكفيها ان تنعزل عن الشعب ، ولكنها كذلك تستهين به .

لكن شخصية محمد تيمور ، وايمانه برسالة الفن ، جعلته يقوى على تكسيـر القواقع التي يضربها هذا المجتمع حـول الفنان ، ويتمرد على القيم البالية ، ويشق طريقه الى قمة الريادة . ولكن الاهمال المتعمد ، والاستهانة بالفن ـ فيما مضى ـ قد امتدت الى تاريخ الفن وأعلامه ، فأغفل تاريخ ادباء الشعب وكتابه وفنانيه ، فمرت فترة النضال الفني في حياة مجتمعنا الناهض في بواكير هـذا القرن وكأن لم تكن ، حتى اصبحت الكتابة عن محمد تيمور ومعاصريه، وعن الفترة التي عاش فيها رغم قرب العهد ـ ضربا من الاكتشـاف في تاريخ الفن .لكن النهضة التي نعيشها الان ، ونجاهد لكي يكتمل بناؤها في حاجة ملحة الى الكشف المستمر ، والامين عن جذورهـا الاصيلة ، وتقصي المنابع الاولى للفن القومي الاصيل .

والاستاذ عباس خضر يمثل دور المكتشف لهذه المرحلة من تراثنا القصصي والمسرحي الذي أوشك ان ينتوه في زحمة الاحداث ، وأوشك الناشئون فيه والداخلون عليه ان يظنوا أنهم يخترعونه اختراعا ، دون ان يأخذوا في حسبانهم ما أرساه هؤلاء الرواد من أسس ، وما أرسوه من قواعد ، وما بذلوه من جهود .

ولقد بدت لي شخصية محمد تيمور من خلال جهود الاستـاذ عباس خضر ، وهو يكشف عن جوانبها ، ويعرض المجالات التي برزت فيها هذه الشخصية ، والدور الرائد الذي قام به تيمور في هـذه الفترة من تاريخنا الفني ، ويبرز الملامح المميزة التي اتسمت بها هذه الشخصية الفذة المتعددة المواهب والاهتمامات .

فلقد تحدث عن تيمور ناشئا في بيئته التـي هـي مزيـج مـن الارستقراطية والثقافة القائمة على التراث العربي القديم ، ثم طالبا ورياضيا ، وشاعرا ، ومؤلفا للقصة والتمثيلية ، ثم ناقدا له لـون خاص ، واتجاه معين ، يهدف من ورائهما الى خلق الشخصية المصرية بملامحها الجديدة ، كما يهدف الى اصلاح المجتمع المصري بجميـع طبقاته . ثم يعرض المؤلف بطريقة تحليلية لاطوار تيمور الثقافية والفنية وهي تنمو وتتطور تلقائيا ، وتتغذى بالمشاهد والرحلات والاجواءالفنية المحلية والعالميـة .

ويبلغ الكتاب ذروته وهو يحلل انتاج تيمور تحليلا علميا منهجيا رائعا . ويمتاز المؤلف في هذا الكتاب وفي غيره من المؤلفات ، بأنـه يكتب وعينه دائما على هدف لا يغيب عنه ، ذلك الهدف هو الشعب . فالشعب هو المحور ، الذي تدور حوله كل القيم وكل الافكار ، وهـو المقياس الذي يقيس به استقامة الاشخاص والاحداث بعدا أو قربا من هذا المحور . ولهذا فهو يحاول ان يعقد صلة وثيقة وحتمية بين تيمور وبين الشعب ، الشعب بكل طبقاته ، ويزعجه دائما ان تبرز الملامـح الارستقراطية ، او تحوم الافكار الطبقية حول محمد تيمور ، حتـى ليوشك ان يجرده من الطبقة التـي ينتمـي اليهـا بالميلاد والنشاة والبيئـة والمعايشـة .

فعباس خضر يبدو من خلف سطور هذا الكتاب اديبا يعشـق الشعب ، ويتعبد له ، ويصبغ كل افكاره وقيمه بالصبغة الشعبية . ولهذا جعل من محمد تيمور كاتبا ثائرا على كل القيم القديمة ، وكـل القيم الجديدة المنحرفة . ولكنه عندما يريد ان يعلل هذه النزعة عنـد محمد تيمور يلجأ الى علة خيالية ، فهو يعزوها الى كثرة ما قرأ فى

المكتبة التيمورية ، والقراءة قد تمنح الثقافة ، ولكنها لا تمنح السلوك المتمرد الذي يعد شذوذا عن البيئة والمجتمع .

على ان حرص المؤلف على شخصية تيمور ، وحنوه عليها ، واعجابه بها قد مسحها مسحة رومانسية ، هي تصوير البطل بصورة الانسان الكامل المنزه من الشوائب ، والاعتذار في كثير من الاحيان عن تصرفاته اعتذارا يجعله غريبا على بيئته ومنبته ، حتى ليكاد ينكر عليه حقه الطبيعي في ان يكون ابن بيئته ينطبع بما تطرحه عليه البيئة والوراثة من آثار .

وهو ينكر ان يكون محمد تيمور قد تأثر ببيئته حين يراه ينزع الى الاشتغال بالادب المسرحي ، على حين يشتغل والده بالتأليف العلمي والادبي واللغوي ، ويشتغل أخواه بألوان اخرى من النشاط الفكري او الادبي . فهذا الاختلاف في لون الانتاج يوقع المؤلف في شبهة تجعله ينكر تأثير البيئة والوراثة في تيمور ، ولو كان قد تأثر بها لتعين عليه في رأي المؤلف ان يكون انتاجه ـ اسلوبا وصورة ونوعا ـ مطابقة تمام المطابقة لانتاج والده وأخويه . ولم نعلم فيما علم الناس من امر الوراثة او البيئة انها تجعل الابناء نسخة طبق الاصل من الآباء او المعايشين ، حسب هذه العوامل ان يظهر أثرها في التيار العام .

لكن المؤلف ـ كما قلت ـ حريص على ان يمنح شخصية تيمور منزلة البطولة ، وتجعله متفردا بمواهب لم يسبق اليها في بيئته او في وراثته ، وفي رأي المؤلف انه كلما كانت الشخصية غريبة على زمانها كانت اكثر بطولة ، واثقل وزنا .

تبقى بعد ذلك تساؤلات يسيرة لا بد ان يقف عندها قارىء الكتاب ، يمكن اجمالها في النقاط السريعة التالية :

ـ هذا الموضوع الخطير وهو يتعرض لمرحلة من مراحل النمو الفني في بلادنا ، وهذا الفن في هذه المرحلة ما زال في دور الاكتشاف ، والكتاب منشور لعامة القراء ـ كان في حاجة الى مقدمة تعريفية تدخل بالقارىء شيئا فشيئا في صميم الموضوع ، ولا ادري لماذا حجبها المؤلف وهو في رأيي يرتاد بهذا الكتاب وبامثاله مجالا جديدا ؟

ـ اول سطر في هذا الكتاب يحمل ملاحظة المؤلف في ان معظم الذين قادوا الحركة التجديدية في مصر في العصر الحديث ولدوا في اواخر القرن التاسع عشر ، وعاشوا في القرن العشرين ، وهي ملاحظة وردت في صورة اكتشاف ، مع أنها شيء بديهي اقتضاه تتابع السنين من غير ان يثير اية ملاحظات .

ـ خلع المؤلف على تيمور لقب « الرائد المسرحي » ، وجعل هذا اللقب عنوان فصل من فصول الكتاب ، وكلمة «الرائد» كلمة خطيرة ، تقتضي من يمنحها ان يحشد لها كل قواه ، ليبرهن عليها ويدعمها بكل ما لديه من الحقائق العلمية والادبية .ولكن هذا الفصل مر في اقل من أربع صفحات تضم بعض السرد التاريخي عن تيمور كممثل .. كأي ممثل ، وفي خلال هذا اعترف بفشله او انقطاعه عن التمثيل ، وكمؤلف .. كأي مؤلف «لم يكتمل لمسرحياته النضج الفني» ـ وهذا نص المؤلف ـ كما تضم حقيقة صغيرة ، وهي ان كتابته « كانت عن علم ودراسة » .

والمؤلف لم يعتمد في ايراد هذه الحقيقة الا على مرجعين عاديين ، واقتباس من الاستاذ زكي طليمات .وهذا في رأيي لا يبرر ان محمد تيمور رائد .. لا اعترض على حق المؤلف في منح تيمور هذا اللقب ، ولكن مضمون الفصل لم يبرر ـ من وجهة نظري ـ هذا اللقب .

ـ كنت اتوقع ان يكون الكتاب تأريخا مستفيضا للحركة المسرحية في هذه الفترة التي ما زالت صورتها باهتة في نظر الجيل ، وكانت الفرصة سانحة ليؤرخ المسرح المصري المعاصر من خلال شخصية من اهم شخصياته ، ولكن المؤلف شغل بالشخصية عن الاطار التاريخي للمسرح المصري ، مع ان الكتاب كما نعرف قد جاوزت صفحاته الثلثمائة .

ـ في التحليل الذي أورده المؤلف لمقالات تيمور عن « التمثيل الفني واللافني » أورد كثيرا من التسميات والمصطلحات الفنية الاجنبية ، وتركها صماء ، لم يتناولها بالتعريف او التفسير ، وكان الاجدر ان يعرف بها اتماما لفائدة القارىء ، كما فعل وهو يعرض لمقالاته عن «تاريخ التمثيل» ـ خاصة وان هذه المصطلحات لم تستقر مسمياتها بعد في مفهوم القراء وطلاب الثقافة الفنية .

ـ في تحليل المؤلف لرواية « العشرة الطيبة » يورد ان تيمورا كتب للمسرح بكل طاقاته وامكانياته ، ولكن المسرح خذله ، ويدلل على ذلك باثنتين من مسرحياته « لم تعرضا الا عدة ليال قليلة ، لا يمكن ان تعد مقياس نجاح او استجابة جماهيرية » ـ فهل هذا هو المقياس العلمي في نظر المؤلف لنجاح هذه المسرحيات الا يمكن ان يكون ذلك من دلائل عبقريته او سبقه لعصره كما يقولون ؟ أم ان «ايراد شباك التذاكر » واقبال الجماهير .. أية جماهير ، يمكن ان تكون بديلا لميزان النقد العلمي الموضوعي لهذا الانتاج المبكر ؟

ـ يقول المؤلف في اكثر من موضع : ان تيمورا يندمج في الشعب ، ويتميز بالشعبية ، ولا يتعاطف مع الفلاحين مجرد تعاطف ، ولكنه في اثناء تحليله لرواية العشرة الطيبة يتهمه بسوء الفهم للشخصية المصرية ، وهو يصور شخصيات الفلاحين تصويرا يوحي بالانحلال والتخنث وعدم المبالاة .

ـ يقول المؤلف في اكثر من موضع كذلك : ان محمد تيمور تأثر حتى في أسلوبه القصصي بالشعر المهجري ، ثم لا يبين كيف تأثر ، ولا أية وسيلة من وسائل التأثر ، ولا أي موطن من انتاجه ظهر فيه هذا التأثر ، مع ان المناسبة كانت حاضرة وهو يقارنه بميخائيل نعيمة ، وكانت المناسبة حاضرة وهو يتحدث عنه كشاعر .

وفي اعتقادي ان هذه التساؤلات الكثيرة التي يثيرها هذا الكتاب دليل على حيويته ونبضه بالمعلومات وبالقيم الجديرة بالوقوف عندها واستدرار فائدتها الكبيرة ، وهنا لا بد ان أذكر بالكثير من التقدير هذا التلخيص الشامل لملامح المسرحية عند تيمور التي بدت واضحة في هذا الوقت المبكر من نهضتنا المسرحية ، وعلي ان اذكر حديث المؤلف عن تيمور كناقد اجتماعي ، يعالج المثالب الاجتماعية عن طريق المنولوج والشعر ، وكذلك جهده في انتقاء هذه المختارات التي ضمها الكتاب من انتاج تيمور وتنسيقها وتحليلها ، ثم قائمة المؤلفات التي خلفها هذا العبقري الصغير .

وبعد .. فان الجهد الذي يبذله الاستاذ عباس خضر في الكشف عن هذه المرحلة الرائدة في حياتنا الادبية والفنية جدير بالتنويه ، لانه يقوم بدور المكتشف لكثير من نصوصها واصولها التي تكاد تكون في حكم الحفريات بالنسبة لابناء هذا الجيل .

القاهرة — رضوان ابراهيم

●

المقري ـ صاحب نفح الطيب

تاليف محمد عبدالغني حسن ـ ١٩٠ صفحة ـ سلسلة اعلام العرب رقم ٦٠ ـ منشورات الدار المصرية للتاليف والترجمة بالقاهرة

«المقري» من شيوخ الادب ، ومن ائمة المؤرخين ، ومن اعلام مؤرخي الآداب ، وهو في نظر الباحثين اليوم ، من اصحاب «المعلمات» الخاصة . اي انه واضع «دائرة معارف» خاصة بموضوع . لان كتابه «نفح الطيب» مرجع هام ، من مراجع تاريخ الاندلس ، لم يستغن عنه اي باحث ، منذ ان اصبح بين ايدي الناس حتى اليوم . ولولاه لضاع الكثير من تاريخنا الطويل في تلك البقعة من ديار الغرب . وهذا الكتاب خاصة ،

ما زال محتاجا الى كثير من العناية لاستخراج الكنوز الفنية التي تزخر بين دفتيه .ففيه تراجم ، وفيه سير ، وفيه شعر ونثر ، وفيه تدوين لمظاهر حضارة غنية من جميع نواحيها ، واخصها الناحية الاجتماعية . ويكفي ان تعرف منه عدد الفنادق والحمامات في بلدان الاندلس ، لتعرف الى اي حد قد ذهب في البحث هذا المؤلف (المعلمي) . وفيه غير هذا وذاك مما لا تتسع لاحصائه هذه الكلمة ، وتكفي فيه الاشارة.

ولم يكن «المقري» غريبا عن الخاصة من قراء العربية ، ولكنه ما زال غريبا عن جمهور المثقفين .ذلك بأن كتابه الذي اشتهر فيه ، وهو نفح الطيب ، ليس من كتب المطالعة السهلة ، وانما يمكن ان يعتبر بالنظر لضخامته من كتب المراجعة التي يسألها الناس الصواب حينما يختلفون في اي شأن من شؤون الفكر او العلم . ولهذا خفيت شخصيته وسيرته عن جمهور المثقفين ، ولم يذكر في كتاب تاريخ الادب العربي المدرسي فيما اعرف . وقد يعرفه القلة من طلاب كليات الآداب ، وقد تجهله الكثرة على الرغم من اننا مدينون له بمعظم ما نعرف عن الاندلس .

لهذا كان اقبال الاستاذ المحقق محمد عبدالغني حسن على تأليف كتاب برأسه عن «المقري» عملا عظيما ، لانه تعريف بهذا الرجل ، وجلاء للكثير من المجهول عنه ، وترغيب للخاصة وللعامة على السواء في دراسة آثاره ، والانتفاع بالكنوز التي تضمنتها . وهذا العمل ، انصاف لرجل نذر حياته للعلم ، وترك من الاثر في المعرفة العربية خاصة ، وفي المعرفة الانسانية عامة ، ما جعله بين الخالدين .

ان ترجمة الاعلام فن قائم بذاته ، والناس فيه مذاهب . وما زالت مكتبتنا العربية فقيرة كل الفقر الى هذا النوع من التأليف ، وما اظن انني اغلو حينما اقرر ان ما في المكتبة العربية من كتب التراجم ، قديمها وحديثها ، قاصر عن جلاء مؤلفينا كما ينبغي ان يكون .فالقديم منها تزهد فيه الناشئة لصعوبة دراسته ، ولان الطريقة التي كتب فيها لم تعد سائغة في هذا العصر . واما الخاصة فانها تخضعها لقواعد البحث الحديث ، والنقد المجرد ، فترى فيها ، احيانا او غالبا ، رفعا يجاوز حد المعقول ، او خفضا يذهب بكل الحسنات . واما كتب التراجم الحديثة فانها تتخذ المصادر القديمة اساسا للبحث ، وتقارن بينها ، وتنخل ما فيها .وينتقي كل مؤلف ما يتراءى له انه اقرب الى الحق ، ثم تعمد بعد هذا الى كتب المؤلف ، فتصور منها شخصيته ، وتبرز خلاله ، وتبين مدى اثره في عصره ، ومدى تأثره من ظروف العصر الذي عاش فيه . هذه الدراسات الحديثة ما زالت تفتقر اليها المكتبة العربية . ونحن بالقياس الى غيرنا من الامم مقصرون .

خذ مثلا ما كتب ويكتب عن الادباء الفرنسيين . انه فيض لا حصر له ولا عد ، في كل يوم تقذف المطبعة الفرنسية بعشرات الدراسات ، ان لم اقل بمئاتها وآلافها . وقل مثل ذلك عن آداب الامم الاخرى .وقد يكون في اتساع زمان الثقافة العربية بعض العذر الذي ينهض لهذا النقص ، فما كانت خدمة اربعة عشر قرنا على الاقل ، اي منذ الهجرة حتى اليوم ، امرا يسيرا . ولكن كثرة الجامعات ، ووفرة المختصين ، وتيسير سبل البحث ، وغير ذلك من الاسباب والعوامل ، تجعل التقصير واضحا كل الوضوح .

لقد كان اغتباطي بمؤلف الاستاذ الصديق محمد عبدالغني حسن عن شيخنا المقري عظيما . فلقد جلاه لنا بلحمه ودمه ، بعقله وعاطفته، بمزاجه واطواره ، بفكاهاته ونوادره ، بسفره وحضره . لقد حدثنا عن ملامح عصره ، وعن مولده المغربي ، ونسبه القرشي ، وعن زواجه من اسرة شريفة وطلاقه ، وعن دمشق والقاهرة واثرهما فيه . وعن شيوخه واجازاته ، وعن تدريسه تحت قبة النسر في الجامع الاموي ، وعن اصحابه في المشرق واصدقائه في المغرب ، وعن طريقته في التأليف ، وعن حافظته القوية ، وعن جده وهزله ، وعن مدائحه النبوية ، وعن غرامه بالتصوف وكرامات الاولياء ، وعن «المقري معرف الشرق بالغرب ، وعن غربته وحنينه ، وعن مؤلفاته .

في هذه الفصول على ايجازها ، افكار واضحة ، تجعل المقري ماثلا امامك ، وكأنك قد انتقلت الى عصره ، وكأنه أنشر في هذا العصر . وليس هذا بالشيء القليل . ولقد تعودت مع صديقي الاستاذ محمد عبدالغني حسن المصارحة والناصحة ، فهل علي من حرج اذا انا استأذنته في ان اوجه نظره الى بعض ما استوقفني ؟ ان وجدانه العلمي ، وروحه المتسامح ، يأذنان في ان اشير الى ما ارى انه الصواب.

واول ما الاحظ ، ان الكتاب اصغر من المقري ، ومن محمد عبد الغني حسن معا . فلقد كان المقري بدراسة اوسع أجدر ، وكان محمد عبدالغني حسن عليها أقدر . واذا لم يخني حدسي فاني قد قرات هذا بين السطور ، وكان المؤلف راغبا في الزيادة وكان روح المقري يدعوه الى الاستزادة ، ولكن الذي حال بين المؤلف وبين ما يشتهي على ما يظهر ، هو حجم السلسلة التي نشر فيها الكتاب ، أعني سلسلة « اعلام العرب » .ومن عانى التأليف عرف جنايات الناشرين على المؤلفين . فهذه واحدة اعذره فيها ، ويقيني ان وفاء الصديق المؤلف للمقري في دراسة اوسع ما زال في كناشته ، ينتظر الظرف الملائم للنشر.

اما الثانية فاني احتكم فيها الى عقل الاستاذ الصديق والى قلبه. ولست ارضى بغيره حكما ، ليقيني من انصافه ، ولثقتي بعقله الكبير ، ولمعرفته بقلبه الذهبي ، ولتأكدي بعد هذا كله من ايمانه . والامر عنده وعندي ، فيما اعتقد ، ليس من الامور اليسيرة . فلقد تحدث بين الصفحات (١٤٢ ـ ١٥١) عن المقري المقري (بين التصوف وكرامات الاولياء) ، وقرر انه «يروي كثيرا من اخبارهم ، وغرائب احوالهم ، ويحكيها حكاية المصدق لها ، المؤمن بها ، ثم يشير الى تجريح العقلاء والمصلحين لهذه الخرافات والاباطيل ، وينقل عن الناصري والبيوسي تصويرهما « لانحراف التصوف عن نهجه القويم ، وكيف بلغ تضليل الشيوخ لاتباعهم» وينقد المقري نقدا قويا لاذعا ، لانه يرى ان تصديقه للكرامات قد بلغ حدا لا تألفه طبائع الاشياء . وانه يتقبل ما يسمعه ويرويه من كرامات الاولياء قبولا حسنا ، قبول المؤمن بها ، المصدق لها ، مهما كان فيها من غرابة ، ومخالفة للطبائع المألوفة والسنن الجارية . ومهما كان فيها مما لاتجري اصول الحياة به ، ولا تسير سنن الاشياء عليه» . ويسخر حين ينقل عن المقرى انه ترجم للعالم الزاهد (ابن هال) فقال : « كانت في داره شجرة تسجد لسجوده اذا سجد » . وفي وسط هذه الصورة التي وفق الاستاذ الصديق الى اخراجها بكل ما فيها من سخف وضلال ، ومخالفة للعقل وللدين ، اشار الى زيارة المقرى للمدينة المنورة ، مدينة الرسول ، وللمسجد الاقصى (ص ١٤٩). وصديقي المؤلف لا يمكن ان يخالفني في ان ذكر هاتين الزيارتين ليس مكانه هنا ، بل كان الاحرى ان يفرد له فصل خاص ، فما كانت زيارة الروضة المطهرة ،في المدينة المنورة ، ولا المسجد الاقصى في القدس الشريف ، كزيارة قبر محي الدين بن عربي ، ولا قبر ابي بكر بن العربي ، ولا قبر ابي العباس المرسي ، ولا قبور غيرهم من الاولياء والصالحين . ولست اشك في ان الاستاذ والصديق لم يقصد الى ان هذه الزيارات متشابهة ، بدليل ما احاط زيارة الروضة المطهرة والمسجد الاقصى من عبارات التبجيل المنقولة عن المقري نفسه ، وبدليل انكاره ايما انكار لتصديق المقرى بكرامات الاولياء . ولعلي بهذا قد ادخلت السرور على قلب صديقي ، ليعمد في طبعة مقبلة ، الى صيانة انوار النبوة في المدينة والقدس من انتذكر مع ظلمات المخرفين .

وثالثة لم اتعودها في اسلوب الاستاذ الصديق حين كتابة التاريخ ، ولا في احاديثه الخاصة فلقد عرفت فيه حسن اختيار اللفظ الرقيق ، حتى يوم يتعرض للنقد الشديد . سواء اكان ذلك في كتبه ومقالاته ، ام كان في مذاكراته . وما ادري كيف انزلق قلمه فوصف السلطان سليمان العثماني بالوقاحة (ص ٨) ، لانه طمح الى الاستيلاء على المغرب والمعروف عن هؤلاء السلاطين انهم اقاموا

للاسلام عزا وجددوا له مجدا .

واربعة قد تكون دمشقيتي هي التي دعتني اليها ، وقد يكون وجه الصواب ما رأيته فيها : ذلك بان المؤلف الصديق قد عقد فصلا عنوانه (بين دمشق والقاهرة ص ٤٣ - ٥١) ذكر فيه المفاضلات والمفاخرات بين دمشق ومصر ، واتهم المقرى بانه (لم يلزم جانب الحيدة) - واظنه يريد الحياد لانه كان يعلق احيانا بما يدل على هواه وميله (نحو دمشق) . ترى لو كان هوى المقرى مع مصر هل كان حياديا ايضا ، فالمقري ليس حكما بين العاصمتين ، وانما هو انسان يهوى ويميل ، وليس للحياد محل في الهوى والميل . وهل يحيد من احب مصر وفضلها على دمشق او من احب دمشق وفضلها على مصر ؟

وبعد فلولا انني واثق من ان الاستاذ الصديق ، العالم المحقق ، يفهم عني كل ما اريد من هذه الملاحظات لامسكت عن الاشارة اليها . ولولا يقيني انه سيرحب بها اكثر من كل قارىء ، لما اهتممت بايرادها . وحسب المؤلف انه قد امتع قراء العربية بسفر نفيس ، صور فيه رجلا من اعاظم رجالنا ، فاخلص في التصوير ، والقى على شخصيته انوارا صافية بالغة في صفاء . وكم اتمنى ان تزخر المكتبة العربية بمثل هذا الكتاب القيم .

نزيل جدة ظافر القاسمي

كتابان لعلال الفاسي

هل الشريعة في حاجة الى دفاع ؟ سؤال اجاب عنه الرئيس علال الفاسي في كتابين صدرا حتى الان : « مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها » و « دفاع عن الشريعة » وهو ما يزال يجيب عنه فيما يكتب من ابحاث وما يلقي من محاضرات على طلبة كليتي الحقوق والشريعة في المغرب .

ولعل هذا الانغمار من الرئيس علال الفاسي في ميدان الدفاع عن الشريعة وحده يشعرنا بانها في حاجة الى دفاع . فقد عودنا علال كمفكر كبير وكزعيم وطني كبير الا يدافع عن القضايا التي ليست في حاجة الى دفاع ، وعودنا الا يخوض معارك من اجل خوض معركة فحسب ، فقد سما عن ميدان الصراع من اجل الصراع منذ تبنى الدفاع عن اكبر قضية في المغرب الحديث : الاستقلال والديمقراطية .

قليل من المفكرين من رزقوا فكرا شموليا كفكر علال الفاسي ، فهو الرجل الذي شغل نفسه بالقضايا الوطنية والسياسية منذ كان تلميذا يدرج الى مجالس العلم وما يزال ، تجده يشغل نفسه في الوقت ذاته بقضايا الشريعة وبجانب الدفاع عنها على الاخص ، لانه يفهم الحياة على حقيقتها ، ويفهم المجتمع الانساني على حقيقته ، ويفهم الانسان الحالي على حقيقته ، ولذلك يتجاور في فكره الواسع الشمولي الدفاع عن حرية الارض وحرية الانسان وحرية اقتصاده وحرية عمله وتصرفاته وعقيدته وحرية شريعته ودينه وقانونه ، لان الاستعمار حينما انقض على الارض والانسان اغتصب هذه الحريات جميعا ليخلص له الانسان المستمر مجردا من كل كيان ، سواء كان هذا الكيان اقتصادا او ارضا او شريعة او دينا او فكرا ، متذرعا بالاصلاح وبتطوير الانسان المستعمر والارض المستعمرة ، وبالسلوك بها في طريق الحضارة . فالكفاح من اجل تحرير الانسان اذن يجب ان يكون شاملا لكل كيانات الانسان حتى يكون كفاحا حقيقيا كاملا لا كفاحا ناقصا مجزوءا ، وهل يقوى على كفاح مثل هذا الا الرجل الذي يتجاور في فكره الاقتصاد مع الشريعة ، والوطنية مع الدين ، والاسلام مع احدث النظريات الفلسفية مؤمنة او ملحدة ؟ وهل في عصرنا رجل يمثل هذه الشمولية النادرة غير علال الفاسي ؟

وانطلاقا من هذه الشمولية يرى علال الفاسي وهو يصحح المفاهيم ان القضية قضية استعمار ، لان الاستعمار في مفهومه الاصلي كل لا يتجزأ . فكل المستعمرين يعملون على خلق شعوب على صورتهم واهالي على صورة مواطنيهم ، ولذلك « فالاستقلال لا يعني ان نخرج من قبضة الحكم الاجنبي وان تخرج الجيوش الاجنبية من بلادنا ، ولا يبقى لدينا قاض ولا تقني اجنبي ، ان ذلك ليس الا ازالة لمظاهر القوة التي تعوقنا عن التحرر الحقيقي ، انه ليس غير مرحلة انتقالية لا بد منها لناخذ نحن طريقنا في البناء وبعث الذاتية الاسلامية الوطنية التي حجبها عنا المستعمر بمجهوداته . فاذا رضينا نحن بقوانين الاجنبي مكان قوانيننا ، واذا اخترنا لغته مكان لغتنا ، فمعنى ذلك اننا لم نزد على ان ورثنا سلطته وقمنا مقامه في تطبيق البرامج التي كان يعمل لها » .

وانطلاقا من هذه الفكرة اهتدى علال الى ان الشريعة كدين قد لا تكون اهمت المستعمر في بلادنا كثيرا لانه يعرف ان الدين عقيدة اكثر رسوخا من ان تستطيع قوة المستعمر ازالته من قلوب المسلمين ، واهتدى الى هذه الحقيقة بالتجربة فهو لم يستطع ان يقضي على الاسلام كعقيدة في الجزائر مثلا ولذلك فهو غير مستطيع ان يقضي عليه في المغرب او اي مجتمع اسلامي ، ولكن الذي يهمه ليكون مواطنين على مثل صورة مواطنيه هو الشريعة كقانون ، ومن هنا بدأ يحاول ان يغير هذه الشريعة وان يستبدلها بالقوانين الوضعية : قوانينه التي ابتدعها لبلاده ، او اقتبسها مما بقي من القوانين الرومانية وما ادخل عليها من تحويرات تتفق والمجتمع الاوروبي الفرنسي او البلجيكي او الانجليزي . نحن اذن امام حقائق : اولاها : اننا امة لها قانونها المتمثل في الشريعة الاسلامية ، فنحن حينما وطئت ارضنا اقدام الاستعمار لم نكن شعبا بدون قانون ، وحضارتنا ليست حضارة عزلاء مما ينظم الحياة والمجتمع فيها تنظيما عمليا واجتماعيا واقتصاديا ، وانما كانت حضارتنا متكاملة : للفكر والدين والقانون والشريعة نصيب كبير في تنظيمها .

وثانيها : ان الاستعمار تعمد ان يهدم اصول هذه الحضارة وان يقضي على ما تخلف مع عصور التخلف من اصول للشريعة والقانون في بلادنا جريا على سنته في ان يفصل بلادنا عن كياناتها العريقة .

وثالثها : ان الاستعمار حينما اضطر الى وضع قوانين وتشريعات لجأ الى قوانينه ليخلق من المواطنين اشكالا على صورته اتباعا لسنته في الغزو الفكري الذي مارسه في عدة مجالات وفي مقدمتها مجال التشريع .

ونتيجة لكل ذلك انهارت قيمة الشريعة في المجتمعات المستعمرة ، واصبحت هذه المجتمعات تسير على نفس الطريق ، حتى بعداستقلالها، لانها آمنت بالفكرة التي بثها المستعمر ، وهي ان الشريعة مظهر عتيق لفكر عتيق لم تعد صالحة لحياة العصر . وصدا لهذا التيار الجارف في المجتمعات المستعمرة عمليا او فكريا وجب الدفاع عن الشريعة وتلك هي المهمة التي قام بها السيد الرئيس علال الفاسي في كتابه « دفاع عن الشريعة » (١) .

والشريعة في حاجة كذلك الى دفاع لان التشريعات الاجنبية الحديثة التي نسخت الشريعة الاسلامية معظمها يهدف الى مقاصد استعمارية طبقت على عهد الاستعمار فحقق بها اهدافه وما تزال تطبق فنحققبها نحن اهدافه من حيث نشعر او لا نشعر . ويأتي الرئيس علال بامثلة كثيرة مهمة يقارن فيها بين فقه الشريعة وفقه القانون الاجنبي الذي طبق . ويفضح السر الاستعماري في استبدال

---

(١) مطبعة الرسالة بالرباط اكتوبر ١٩٦٦ - ٢٥٠ صفحة

الشريعة بالقانون الاجنبي . خذ مثلا القانون المغربي الاسلامي الذي يمنع امتلاك الاجانب للارض الزراعية ، لان الارض ملك للطائفة الاسلامية ، ولذلك لا يصح لغير ابناء الطائفة او الذميين امتلاك الارض ، وبذلك كانت الشريعة وسيلة مهمة للمحافظة على الارض الفلاحية في يد المواطنين . وجاء الاستعمار فوضع قوانين وضعية مرت بعدة اطوار تغير حكم الشريعة وتبيح امتلاك الارض ، بل تبيح نزعها من المواطنين وتمليكها للفلاحين المستعمرين كعمل يهدف الى مصلحة عامة . واقرأ امثلة اخرى من الاهداف الاستعمارية في التشريع الاجنبي في عدة فصول من الكتاب وبخاصة الفصل ١٥ .

وهذا من الاسباب الهامة للدفاع عن الشريعة حتى نتخلص من كل مظهر من مظاهر الاستعمار الاجتماعية والاقتصادية . ومن موجبات الدفاع عن الشريعة العنصرية التي ظهرت في القوانين الاجنبية والتي تمنح من الحقوق والامتيازات والضمانات للاجانب ما تحرم منه المواطنين احيانا بنص القانون او بمدلوله .

وفي اطار الدفاع عن الشريعة يعقد الرئيس علال فصولا لمحاسن الشريعة ولصلاحيتها لهذا العصر ولامكانية الرجوع اليها في عصرنا ويعالج هذا الموضوع من جانبه النفسي والواقعي والفكري ، ويهدف من ذلك الى اقتلاع الافكار السابقة التي غزت الفكر عند المسلمين والتي تزعم ان الرجوع الى شريعة قديمة مظهر من مظاهر الرجعية . وقارىء الكتاب بعد ان يعرف الفرق بين الشريعة والقوانين الوضعية الجديدة التي استعمل بعضها لمجتمعات اخرى ونقل الينا بعد ان حرف ليتفق والفكر الاستعماري ، يدرك ان العودة الى الشريعة ليست ممكنة فحسب ، ولكنها ضرورية كمظهر للتحرر الفكري والقانوني والاقتصادي كذلك .

لا استطيع ان ازعم لنفسي او للقراء اني كنت متفقا مع الرئيس علال في كل الافكار التي حفل بها الكتاب وخاصة المتصلة منها بفلسفة التشريع . فقد كنت اقف عند بعضها فلا اجدني اتفق مع المؤلف في جوهرها . واضرب مثلا او مثلين للاراء القليلة التي كنت معه فيها على خلاف . في الفصل التاسع يتحدث المؤلف عن مميزات الشريعة وهو فصل قيم جدا ، واستلفت نظري حينما تحدث عن ضمان الشريعة للاخلاق لانها لا تراعي حماية الامن والنظام والاشخاص فحسب ولكنها تحمي الاخلاق كذلك ، لان الاخلاق جزء من الايمان والشريعة صادرة عن الدين الذي يعتبر الايمان بعضا منه . استلفت نظري قول المؤلف في معرض التدليل على هذه النظرية : اما القوانين الوضعية فهي تعتبر الاخلاق شيئا معنويا لا يدخل في دائرة الالزام ولذلك فهي تجعل الخلق منفصلا عن القانون ، وما ذلك الا لان القانون منفصل عن الدين .

ويبدو لي ان في القوانين الوضعية ما يضمن الخلق وان الاخلاق ليست منفصلة عن القانون الوضعي ، ولكن مفهوم الخلق هو الذي يختلف في الشريعة عنه في بعض القوانين الوضعية .

وفي نفس الفصل يتحدث المؤلف عن كمال الشريعة لانها من عند الله المتصف بالكمال وعن نقص القوانين الوضعية لان واضعها متصف بالنقص والضعف وقلة الحيلة . واذا كان كمال اصول الشريعة شيئا مؤكدا لانها من عند الله فان نقص القوانين الوضعية لمجرد ان واضعيها متصفون بالنقص الانساني رأي يدعو الى نظر . فان الجهود العلمية التي بذلت في التشريعات الوضعية المجردة عن المقاصد الاستعمارية والمقاصد الرأسمالية المتطرفة من شأنها ان تجعل بعض التشريعات مكتملة ، وان كان اضعوها متصفين بالنقص الانساني .

في الكتاب كثير من امثلة التشريع الاسلامي مقارنة بالتشريع الوضعي ، وكم احب ان تتجه نية الرئيس علال الى افراد كتاب بالتشريعات الاسلامية التي يمكن تطبيقها في المجتمع الحديث وخاصة ما يتصل منها بالحياة الاقتصادية والمعاملات اليومية ، فان هذا الدفاع القوي حري بتطبيقات واسعة تضع يد المشرع على نماذج مما يمكن فيها تطبيق الشريعة في مجتمع يحيا حياة عصرية .

الرباط ـ المغرب **عبدالكريم غلاب**
نقيب الصحافة
رئيس تحرير جريدة العلم

•

ثمانية من الكتب القيمة

في فترات متعاقبة حطت على مكتبي حزمة من الكتب القيمة حملها البريد من مختلف المدن ، وقد اهدانيها اصحابها الاريحيون سخاء منهم ووفاء بالعهد المسؤول . ويتقاضاني واجب الوفاء عرضا اتناول فيه تلك الاثار القلمية الرائعة :

١ ـ الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤

تضطلع (مؤسسة الدراسات الفلسطينية) بمهمة شاقة عسيرة لا يقوى على حملها الا من كان واثقا من طاقاته ، مؤمنا بكفاءاته . واية مهمة اكبر مشقة من التعريف بالقضية الفلسطينية والدعوة لها ؟!

و « الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤ » من منشورات هذه المؤسسة الواعية لواجبها الساهرة على غايتها ، وفيه عرضت ماجريات القضية الفلسطينية والاحداث التي المت بها ، ولقد بذل القائمون على مؤسسة الدراسات هذه جهدا مشكورا في سبيل التعريف باظلم قضية عرفها التاريخ .

٢ ـ الوثائق الفلسطينية لعام ١٩٦٥

قطعت « مؤسسة (١) الدراسات الفلسطينية » عهدا باخراج كتاب سنوي عن القضية الفلسطينية واشارت الى هذا العهد في مقدمة الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لسنة ١٩٦٤ .

وكان من غيرة الوطني الصامت الدكتور منذر فائق عنبتاوي على قضية العرب الكبرى ان جمع الوثائق التي لها صلة بالقضية الفلسطينية وحرر موادها واخرجها في كتاب ضخم بلغت صفحاته ٦٠٧ من القطع المتوسط .

ولا بد لمن يطلع على هذه المعلمة ان يحني الهامة اعترافا بهذا الجهد المشكور الذي بذله الدكتور عنبتاوي ويهز يده مهنئا بهذه الطرفة القومية ويعقد الامال على الاتي من هذه الروائع .

٣ ـ نوى

جمع اخونا الاستاذ يوسف الفاخوري (نزيل سان باولو ـ البرازيل) بين الادب والنشب فكان اميرا في دولتي الشعر والدولار .. اذ كتب له ان يكون شاعرا فذا وصناعيا ثريا ، لكنه رغم امساكه بناصيتي الشعر والدولار ظل ذلك « الانسان » المتطامن النفس المتواضع في سلوكه مع الناس .

في عام ١٩٦٦ زار شاعرنا الكبير الاقطار العربية مع وفد يضم نفرا من رجال الصناعة والاقتصاد في البرازيل ، وفي لبنان حبذ له صديقاه الحميمان الشاعر شكرالله الجر والاديب حنا الفاخوري طبع احد دواوين شعره في بيروت ، وبعد حديث مطول دفع الفاخوري لصديقيه ديوانا اسماه (نوى) فكتب شكر الله مقدمته وقد جاءت من امتع ما كتب الجر صاحب الريشة التي اشتهرت بالاصباغ

الزاهية والتلاوين البديعة ، وكتب حنا الفاخوري كلمة رائعة تحت عنوان (الشعر الانسان) ولو قدر لي ان اقرأها قبل طباعتها لاقترحت على صاحبها اسما هو (الشاعر الانسان) . وما الشاعر الانسان الا يوسف الفاخوري الذي عرفته في سان باولو شاعرا انسانا !

وفي (نوى) سجل الفاخوري سلسلة من تجارب عاناها في زحمة عراكه في مهاجره النائية .. ورغم هجرة طويلة سقته زقوما وغسلينا ظل حنانا الى لبنان ، لصوقا بذكراه ، مشوقا للقياه :

ارز لبنان يعلم الله انا ما برحنا على العهود الاوالي
عللتنا (النوى) بنيل الاماني والتعلات من هزيل المقال
قد حملناك في القلوب وسرنا في ميادينها الصعاب المنال !

وعندما يتحرر يوسف الشاعر من اسار الصناعة وقيود التجارة والمصرف الذي يملك بعضه ، ينتفض الشوق في جوانح شاعرنا المرهف الحس فيغني نفسه اغنية السجين .. وهو في الواقع يخاطب نفسه كطائر زج به في قفص :

غرد مع الصباح اغرودة الخلود
وانفض عن الجناح متاعب الوجود
وسائل الرياح هل يا ترى نعود
لعهدنا المراح ؟
يا ساكن القفص !

ورغم بريق القفص يود الشاعر تحطيم القضبان الزاهية الالوان لينطلق حرا وليسبح في جو من الطمأنينة ، وليعتق روحه من المادة التي تكدست في خزائنه .. لكنه لم يفتر بها ولم يسجد لعجلها الذهبي ، وليعود الى مدارج صباه :

يا غريب الدار والربوع
قد كفاك انتظار وهجوع
انت حامي الذمار فالرجوع
الرجوع !

والفاخوري عندما يستلهم ربة شعره ينطق بشعر عذب ويتكلم بلسان نفر من شعراء المهجر الجنوبي امثال الشاعر القروي وشفيق معلوف وجورج صيدح وفرحات وشكرالله الجر وميشيل مغربي ونصر سمعان وتوفيق بربر وزكي قنصل ويترجم احاسيسهم شعرا ويقول في لوعة وحسرة :

لا تسلني يا صاحبي كيف حالي صفوة العيش من ضروب المحال
صانك الله هل رأيت مع الا يام حرا على صفا والليالي ؟!

ويتلفت الفاخوري الى سنيه الغابرة فيضنيه التصعيد في جبال الحياة ، والهبوط الى السفوح والاودية ، فيقول متحسرا على الامس الغابر :

لم يبق من امسنا المستحب سوى ذكريات على الخاطر
نمر سراعا مرور السحاب ونركض خلف الهوى العابر

ويتلمس الفاخوري شعره الاسود فيلفاه قد استحال الى كومة بيضاء ... فينشد نفسه الحزينة :

تعالي نجمع بقايا الشباب فقد لوحت شمسنا للغروب
تكاد سفينتنا في الضباب تضل عن الشط عند المغيب !

والمال الذي فاضت به خزائن يوسف لم ينسه فلسفة الحياة .. فصور واقعها المرير تصوير شاعر بلا الحياة .. وذاق حلوها ومرها :

من زاده الله مالا وعاش عبدا لمال
كحامل الموت يعدو على الدروب الطوال
والموت يسخر منه مسمرا في النعال !

مد الله في عمر شاعرنا يوسف الفاخوري ليظل علما من اعلام الادب وجنديا من جنود القلم ، واديبا اصيلا لم يبطره المال ولم يسجد لعجله .. لانه فيلسوف متأمل سبر اغوار الحياة واستطاع ان يفرق بنظره البعيد ، ورأيه السديد ، بين العرض والجوهر !

٤ ـ غادة افاميا

خلع الاديب الكبير والشاعر الوجداني الاستاذ عدنان مردم بك على الخزانة العربية مسرحية شعرية طريفة جاءت في اربعة فصول اسماها « غادة افاميا » (٢) . وبرا منه بفقيد الادب العربي الشاعر المرحوم خليل مردم بك اهدى روحه هذا الاثر الماتع بوصفه مؤدبه ووالده ، وليست هذه اول مرة يذكر فيها عزيزنا الاستاذ عدنان والده شاعر الشام ، وقبلا اهدى روحه ديوانه « صفحة ذكرى » الذي تولت نشره دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٦١ .

قبل هذه المسرحية التي نحن بصدد الحديث عنها عالج شاعرنا الاستاذ عدنان فن المسرحية وهو على مقاعد الدرس ، متأثرا بمحاضرات كان يلقيها استاذ الادب الفرنسي في « الكلية العلمية » بدمشق فكان اديبنا الكبير آذانا صاغية لشرح نصوص مسرحيات الشاعرين الفرنسيين كورناي وراسين ، وكان مأخوذا بالحديث عنهما .

وفي جو عائلي شذي الفوح عاشه عدنان مردم بك في ظلال والده الشاعر المرحوم خليل مردم بك ، اقبل على المطالعة وعب من معين الادبين العربي والفرنسي وشرع في وضع المسرحيات الشعرية ونشرها في بعض المجلات ، وكانت باكورة مسرحياته « المعتصم بالله » واتبعها بمسرحية « عبد الرحمن الداخل » ثم بمسرحية « مصرع الحسين » وفي عام ١٩٣٦ نظم مسرحية « جميل بثينة » .

واقبل شاعرنا على التاريخ يستنطقه الحوادث والاخبار فقرأ في ثناياه انباء حرب قومية اختار « افاميا » مسرحا لابطالها ، وتلك الحرب القومية شبيهة بالحرب التي شنها السوريون على الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥) حتى اتيح لهم الاجهاز على ذلك المستعمر الغشوم ، وبهذا جمع الشاعر بين ذكرى قديمة حية وبين ذكرى معاصرة ترف على كل قلب ويهتف بها كل لسان !

ولا بد لمن يتصدى للبحث عن تاريخ المسرح العربي وللحديث عن المسرحيات العربية وعن الشعراء والكتاب الذين عالجوها ، ان يذكر بالتجلة والاطراء الاستاذ الشاعر عدنان مردم بك ويطري الجهد الذي بذله في المسرحيات الشعرية التي خلعها على الخزانة العربية فجاءت نجوما لماعة تضيء جنبات المسرح العربي ودروبه ، واوسمة رفيعة تزين صدر من نظم عقودها وزفها عرائس مجلوة للخزانة العربية .

واني لانصح جمهرة الادباء والمتادبين في البسيط العربي باقتناء هذه الطرفة الشعرية ليقرأوا فنا رفيعا وشت فصوله ريشة ساحرة يحملها الشاعر عدنان مردم بك الذي شدا على كل ايكة وغرد على كل فنن !

٥ ـ ديوان عقل الجر

من اشهر طوابع الشاعر المهجري المعروف الاستاذ شكر الله الجر السخاء والوفاء لاخوانه ومحبيه ، وكيف لا يكون وفيا لشقيقه الشاعر المحلق المرحوم عقل الجر وبارا بذكراه ؟!

ولد (عقل) في (بيبلوس) المدينة الاسطورية الغافية على

---

(١) انشئت هذه المؤسسة في بيروت ١٩٦٥ وينص نظامها الاساسي على ان غايتها هي « البحث العلمي حول مختلف نواحي حياة الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية » .

(٢) تشير المصادر الافريقية الى ان « افاميا » ، وهي قطعة من سورية ، خضعت للحكم اليوناني ردحا من الزمن لكن بعض الاساطير تروي انها خضعت للحكم الروماني ، فأخذ الشاعر بهذا الراي لجنوح الرومان الى الفتوح والقسوة وتمجيد الواجب .

شاطىء الابيض المتوسط ، ورغم النعمة التي كان يرفل في مطارفها بارح لبنان الى البرازيل واستقر في الريو واقبلت عليه الدنيا بمباهجها ومسراتها .. لكنه ظل يذكر لبنان ويأسف لهجرانه :

قل للنفوس اذا جاشت مراجلها ... مهلا فان طموح المرء يرديه
المال والمجد والدنيا برمتها ... ليست تساوي لزيزا من مآقيه
ولست آسى على شيء اساي على ... عمر تصرم في الهجران ابكيه
وما احتياجا نزوحي كان عن وطني ... لكنها نزوات الطيش والتيه
لله لبنان لو اني بقيت له ... علمت من فيه كيف الاسد تحميه !

ورغم المال الذي جناه (عقل) في مهجره النائي ، ورغم المكانة الرفيعة التي احتلها في المجتمعين العربي والبرازيلي ، ورغم الشهرة التي اصابها في دنيا عبقر ظل حنانا للبنان ، نزاعا الى الاياب اليه ، لكن الايام اغرته ببريق وعودها.. واخيرا حالت بينه وبين موته في مدارج طفولته :

وطن بالعيون نسقي ثراه ... وان توانى الغمام في امطاره
ان حرمنا من نعمة العيش فيه ... لا حرمنا من مرقد في جواره !

وعاش (عقل)ثلاثا وثلاثين سنة يجتذبه الشوق الى اهله والحنين الى بلاده ، لكن عاملا خفيا كان يشده الى شواطىء كوباكابانا . وفي ليلة عاصفة مدلهمة من ليالي كانون الاول ١٩٤٥ خر النسر من سماء عليائه ، وقع (عقل) جثةهامدة ، وتلاشت الامنية التي كانت تراوده بالرجوع الى لبنان .. ولمتحقق الايام حلم الشاعر الذي صور هواجس نفسه ، وربوع اهله وانسه ، منذ حلت قدماه في ارض البرازيل حتى فارق الحياة بقوله :

لملم النسر جانحيه وطارا ... لا يبالي في سيره الاعصارا
ضاق لبنان وكنة وسماء ... عن مراميه فامتطى الاقدارا
واذا ضاق موطن الحر بالحر ... فما تنفع البسيطة دارا ؟!
أسفا للاديب فهو غريب ... قلق القلب اين حل وسارا
هدهدت نفسه الاماني كبارا ... وبرت عزمه الخطوب كبارا
غصة تلو غصة تلو اخرى ... بين اضلاعه تؤجج نارا
لم ينل من حنينه المال والجاه ... ولم ينسه الجمال الديارا
ساهد الجفن لا يلين بجنبيه ... فراش ولا يقر قرارا
هو في غربة يحول فيها الشو ... ق افراح قلبه اكدارا
وسيفني ايامه ولياليه ... الى يوم في الثرى يتراءى

وفي رحلتين قمت بهما للبرازيل روى لي الذين عرفوا (عقلا) عن كثب انه مفطور على الصدق والوفاء ، لكن صدقه ووفاءه جنيا عليه في بيئة اتسمت بالمصانعة والمخادعة وهما من مستلزمات النجاح في هذا العصر .

وحالت كبرياء (عقل) والبيئة الرفيعة التي عاشها في لبنان دون تفاعله في مجتمع موبؤ لهذا لم يصب ثراء واسع الجنبات .. كما اصاب غيره ممن اتقنوا الخداع والكذب واللعب على الحبال :

ورحت اخوض غمار الحياة ... ودون الحياة زحام البشر
اجالد نفسي على امرها ... واسعى بعزم يفت الحجر
فاعشر بالمكر والاحتيال ... وامني على عفتي بالضرر
وازرع صدقا فاحصد كذبا ... واسلف خيرا فاجزى بشر
واربأ بالعيش ان يجتني ... بنهش الكلاب ووثب الهرر !

تلقى (عقل) علومه الابتدائية في مدارس مختلفة بلبنان ثم انتقل الى مدرسة الحكمة فكان من اساتذة الشيخ عبد الله البستاني والخوري يوسف الحداد ، وانتقل بعدها الى كلية اللاييك فاتقن الفرنسية وانصرف الى دراسة الطب عاما واحدا ثم تحول عنه الى المحاماة ، ثم عدل عنها . والذين عرفوا (عقلا) اكدوا لي انه لو اتم درس المحاماة لكانت هذه المهنة اقرب الى سليقته الادبية كخطيب بليغ ومحدث خبير بفنون الكلام . ولو عاش في لبنان لتولى اعلى المناصب ولكسب به البرلمان اللبناني برلمانيا فذا من طراز رفيع !

وبعد عودة شاعرنا الاستاذ شكر الله الجر الى لبنان شرع في اعداد ديوان شقيقه (عقل) فدفعه الى صفاف الحروف واخرجه بحلة انيقة وبمقدمة نفيسة جاءت في الواقع دراسة مترعة بالذكريات الحية عن (عقل) وقد سخا بها قلم شكر الله الشاعر الذي نذر نفسه للادب وعاش عازبا في محاريبه .. ليروي للناس ما يستلهمه من ربة الشعر من فن ووحي !

وخير ما نختتم به هذه العجلة قصة طريفة اوردها شكر الله في نهاية ديوان شقيقه (عقل) خلاصتها ان (عقلا) زار يوما مدينة سان باولو فرحب به اخوانه الادباء واقاموا على شرفه الافراح والليالي الملاح !

وذات ليلة اجتمع الادباء في دار صديق لهم وصدف ان توددت ابنة صاحب الدار ، وهي طفلة صغيرة ، للشاعر القروي ، مستعذبة صوته الحنون على نغمة الوتر ، و (القروي) عواد ماهر ، رخيم الصوت ، فخطر لـ (عقل) ان يداعب الصغيرة بقوله :

رأيتك طفلة فعرفت حبي ... بهذا القلب كي تقوي فيقوى
فمالك ان شدا (القروي) صوتا ... همت عليه ان تهوي فيهوى
كذا تتحولين وانت طفل ... فمن انباك انك بنت حوا ؟

فاجابه القروي :

بربك لا تلم يا (عقل) طفلا ... صغيرا كالملاك على السوى
فما في الحب كالتبغ احتكار ... ولا مثل الجمارك فيه رشوى
وقبلك في الورى كم حار عقل ... فدع عنك الملام بدون جدوى !

وما انتهى (القروي) من انشاده حتى خاطبه (عقل) قائلا :

لا يصدق الشعراء في دعوى الهوى ... والكذب محمود لهم مغفور
هو شاعر لا تلقيه وحاذري ... - هذا ابوك - فسائليه خبير
هو بلبل هبط الرياض عشية ... وغدا ينقر ما يشا ويطير

فاستشاط (القروي) غيظا وقال :

ان تحذري من شاعر من تأمني ... فحذار ممن ليس فيه شعور
عاب القريض على بلبله وكم ... عاب النظير لدى الحبيب نظير
فتخيري في الشاعرين لي الهوى ... وله الغنى والخام والمقصور !

وحدث بعد ذلك ان نامت الصغيرة فنهض (القروي) يهز سريرها مغنيا لها ، فبادره (عقل) بالبيتين التاليين :

ان هززت السرير منها فجانب ... مكمن الحب طي تلك السريره
انها برعم فلا تك ريحا ... واتق الله في فؤاد الصغيره

فاجابه (القروي) ضاحكا :

ليس بدعا ان حركت نغماتي ... للهوى برعما وهزت صفيره
انا رمز التغريد في الطير ما نا ... دمت روضا الا فتنت زهوره
ومثال الحنان في الام ما ... ناغيت طفلا الا هززت شعوره !

٦ - تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني

يمثل المرحوم عيسى اسكندر المعلوف مشيخة مؤرخي العرب في القرن العشرين ، ويتميز بالمؤلفات الثمينة التي خلفها مخطوطة وما زالت تغط في سبات عميق . ولو كان الوعي في البسيط العربي على مقياس واسع لشقت تلك المخطوطات طريقها الى المطبعة ليقف الجيل الصاعد على ما فاته من اخبار السلف الصالح .

في عداد المؤلفات المخطوطة التي صنفها الشيخ عيسى اسكندر المعلوف « تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني » وباتفاق مع نجله الشاعر الاستاذ رياض معلوف تولت المطبعة الكاثوليكية في بيروت مشكورة طباعة هذا الكتاب طباعة انيقة مفهرسة جاءت في ٣٢٨ صفحة من القطع المتوسط .

وفي صدر شبابه قرأ الشيخ المعلوف عشرات الكتب باللغات الاوروبية الحية عن الامير المعني لكنه لم يقرأ كتابا بالعربية عن حاكم لبنان (من سنة ١٥٩٠ - ١٦٣٥) الا شذرات موزعة هنا .. وهناك ..

وغيرة منه على تاريخ لبنان العربي اقدم على انصاف هذا الحاكم الشهير بمؤلف ضخم تناول فيه حياته وخلافه مع الحكومة العثمانية لتفانيه في خدمة بلاده ورفع مستوى سكانها ونشر العمران في ارجائها .

لا ادري مايلهي شبان الجيل الصاعد في لبنان وسواه من الاقطار العربية عن قراءة سير الاوائل والوقوف على اخبارهم وتراجمهم . وما تراجمهم واخبارهم الا مدارس للطالبين ، ومنابر للسامعين ، ومنائر للتائهين !

بارك الله في همة الاستاذ رياض معلوف وجزى القائمين على شؤون المطبعة الكاثوليكية في بيروت عن جهدها المشكور هذا احسن الجزاء ، ويسر اناسا غيارى لنشر سائر مؤلفات الشيخ عيسى اسكندر المعلوف ، ولعل المطبعة الكاثوليكية ، وهي الحريصة على تاريخ لبنان والشرق العربي تضطلع بهذه المهمة التي عجزت عنها الحكومات والمجامع العلمية في دنيا العرب !

٧ ـ حصـاد الذكريات

اتهيب الحديث عن ديوان « حصاد الذكريات » للصلة الروحية التي تربطني بصاحبه الشاعر الرقيق الاستاذ عبد الله حلاق صاحب مجلة « الضاد » الحلبية ، اذ اخشى من يعرف تلك الصلة الصوفية ان يتهمني بالافراط والغلو !

وحسبي في هذه العجلة ان اصطحب القارىء الكريم الى مقدمة اضفاها على الديوان الشاعر والمؤرخ والاديب الاستاذ محمد عبد الغني حسن فجاءت « وليمة » دسمة ودراسة وافية لادب الاستاذ حلاق وشعره .

ولم ينس عبد الله صاحب القلب الكبير ان يهدي ديوانه الى الرجل المحسان الكبير معالي الاستاذ فتح الله صقال بكلمة رقيقة نمت على ما يفيض به قلبه من حب واجلال للقانوني الضليع الذي دافع عن الزعيم ابراهيم هنانو وحمل قائدا افرنسيا على الاعتذار .. بعد ان صرف الفاظا نابية ، في عهد الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، لعربي حلبي .

تلمح في شعر عبد الله حلاق الوانا كالوان قوس قزح .. واكثر ما يتميز به شعره العذب بالوطنيات والوجدانيات والغزليات ، وفي احدى قصائده يصف (الشاعر) بقوله :

يحسدون الشاعر الفذ ، ولو ... انصفوه لبكوا حزنا عليه
لسة الاحساس اضنت جسمه ... ورؤى الالهام افنت مقلتيه

دمه حبر على قرطاسه ... حبره الاسود يجلو الظلمات
روحه يسكبها في شعره ... شعره : نور ونار وعظات

واذا شيد المحسن الكبير الاستاذ فتح الله صقال (مستشفى الكلمة) خاطبه الشاعر الحلاق بقوله :

فتحت للخير ، لا سيف ولا نار ... وشدت للخلد فليصفر لك الغار
يا (فتح) هذي وفود الخير حافلة ... وفي غصون المنى زهر واثمار !

واذا اقيم حفل في الشهباء لتكريم الشاعر الذائع الصيت والصوت عمر ابي ريشه وقف عبد الله ليقول في صاحبه :

صرخة الحق من قريضك امضى ... يا صديقي من الحسام اليماني
رب باغ طلبته فتحاشى ... لاذع النقد وانطوى كالدخان
لا يرد الظلوم الا انتقاد ... من اديب او طعنه من سنان
رب عرش هوى لقضبة مر ... ويراع سطا على صولجان
ثورة الحر تخلق الوطن الحر ... وتبني للمجد اعلى المباني

واذا دشنت السلطات السورية بناء اقامته الفرقة الزراعية في الحسكة خاطب الشاعر الحلاق (الفلاح بقوله) :

يا ايها الفلاح يا كبش الفدا ... اتراك فزت من الثرى بمراد ؟
تشقى وتتعب والحياة عسيرة ... تضني ودون الفوز فرط قتاد
في صوتك المجروح انة يائس ... وعلى جبينك سمرة الاجهاد
تعطي الغذاء واهل بيتك في طوى ... وصراخهم يدمي فؤاد جماد
لولاك ما افترت ازاهير المنى ... عن ثغرها البسام يوم حصاد
ان الحضارة في البلاد قوامها ... قلم الاديب ومنجل الحصاد !

وشاعرنا الحلاق الغساني المحتد تيمه هوى (الضاد) وهي اللغة التي انزل الله بها آي الذكر الحكيم . وفي كل مناسبة تلوح له يتغنى بالعربية ام اللغات وزينتها :

انا صب تيمتني لغة ... صانها القرآن اسنى الكتب
وجهة المحراب عندي هيكل ... فيه عيسى والنبي العربي

ومن قوله في ام الكتاب :

ولي لغة اعلى الكتاب مقامتها ... فسارت مسير النور شرقا ومغربا
بها نزل القرآن هديا ورحمة ... فرد غليظ الاصفرين مهذبا
وان كلام الله آيات حكمة ... فمرحى لامي وعاه ليكتبا

و(العربية) و (القرآن) و (ومحمد) اقانيم ثلاثة يعشقها عبد الله ويهيم بذكرها ، فاسمعه يخاطب النبي العربي الكريم في قصيدة له بعنوان يا (محمد) :

أ (محمد) والمجد نسبح يمينه ... مجدت في تعليمك الاديانا
وسحقت رأس الشرحين وطئته ... وزرعت في قلب العتي حنانا
ونشرت ذكر الله في امية ... وثنية ونفحتها الايمانا
وامرتها بالبر فاعتزت به ... وتسابقت في نشرها الاحسانا

وخير ما نختتم به هذه العجالة ابيات عذبة بعث بها شاعر الشباب الاستاذ عادل الغضبان الى صديقه الاستاذ الحلاق شاعر الشهباء بمناسبة صدور ديوانه « حصاد الذكريات » :

قم فذكرني باحلامي اللواتي ... كن ملء القلب في فجر حياتي
كن كالشهب سناء وسنى ... فمحاهن اختلاف السنوات
نفحات من شبابي ورؤى ... من اماني ونجوى خطراتي
وصدى كل نشيد في الهوى ... رجعته في ربى الحب لهاتي
وقراء عكست فيها العلا ... كيف سارت في هداها خطواتي
صور القال فيهن اخا ... سبحات واراني في المشاة
رسمتهن قوافيك رقى ... تخلب اللب بسحر الكلمات
كل من حن الى ماضي المنى ... يجتليها في « حصاد الذكريات »!

٨ ـ من الامثال العامية

الشعب العربي في البسيط العربي موزع الاقاليم ، وكل اقليم يتميز عن الاقليم الاخر بلهجته وامثاله وزيه ولباسه ، وشانه في هذا شان بقية الشعوب .

وكان من همة اخينا الاديب الكبير الشاعر خالد سعود الزيد احد اعلام الادب في الكويت ان اختار طائفة من الامثال العامية في القطر الشقيق وشرحها شرحا وافيا وحزمها اخيرا في كتاب اسماه « من الامثال العامية » ورتبها ترتيبا هجائيا ، وزاوج كل مثل عامي بما يقارنه من مثل عربي فصيح وبما يوافقه من آيات قرآنية واحاديث نبوية . ولم يفت الاستاذ الاديب خالد الزيد توضيح المثل العامي او الفصيح فساق الشرح ليوضح كل مغلق فجاء الكتاب متمما للغرض مكملا للغاية التي هدف اليها شاعرنا الكبير .

واذا كنا لا نلمك الاالتحية نبعث بعطرها للاستاذ خالد الزيد فاننا بانتظار موسوعته الكبرى « ادباء الكويت في قرنين » التي ستسد فراغا في ادبنا المعاصر وتعرف ادباء الكويت الشقيق الى اخوانهم في دنيا العرب والى المستشرقين في شتى ارجاء المسكونة .

مد الله في عمر شاعرنا الاستاذ خالد الزيد وزاده حيوية ونشاطا، ليزود الخزانة العربية بدراساته القيمة وابحاثه الثمينة وشعره العذب المستساغ !

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

جولة الأديب في شهر

حوار مع الاديب المهجري نظير زيتون

ليست معرفتي بالاديب المهجري الكبير الاستاذ نظير زيتون ، حديثة ، بل ترجع الى ما يقرب من عشر سنوات مضت ، كنت خلالها اتردد على بيته العامر ، زائرا ، او نلتقي في مهرجان ادبي معا ـ كالتقائنا ، مثلا ، في مهرجان الشاعر « نسيب عريضه » الذي القيت فيه كلمة الاستاذ النابغة ميخائيل نعيمه ، بالنيابة ، والقى فيه الاستاذ زيتون دراسته الرائعة الضافية عن شاعرية نسيب ، وذلك في بهو النادي الارثوذكسي بحمص ، منذ عدة سنوات ، او يجمعنا مقهى من مقاهي مدينة حمص ، لساعة او اكثر نتبادل فيها احاديث الادب والفكر ، في جلسة صيفية هادئة تكون زادا دسما لي ، حتى يتكرر اللقاء ثانية .

والحقيقة ان هذه الجلسات الادبية ، كانت ولا تزال محببة الى أثيرة على نفسي ، لعدة اسباب ، اهمها في رأيي تلك الصداقة المتينة القوية التي كانت تربط الاستاذ زيتون بوالدي ، اثناء هجرتهما معا في البرازيل والتي لا تزال اواصرها مكينة وشيجة حتى الان ، مع ان والدي لم يكن اديبا في يوم من الايام بل هو اقرب الى الجهل والامية ، يرسم امضاءه رسما ولا يستطيع ان يقرأ من الصحف سوى عنواناتها الكبيرة ، ويبدو ان هذه الصداقة قد امتدت من الوالد الى الولد فورثتها عنه ، في حياته ـ اطال الله بقاءه ـ والاستاذ زيتون ـ ولكن بطابع جديد ، وصلات مختلفة يدعمها الفكر ، وتتغذى من لبان الثقافة ، هذا سبب والسبب الثاني هو زمالة الادب والحرف ، مع حفظ الفارق بين اديب شهير واديب ناشيء ، من مدينة واحدة ، والسبب الثالث هو ولعي بالادب المهجري وحبي لعطاءات ادبائه قراءة ودراسة ، ومنهم الاستاذ نظير زيتون الذي يعد اكبر مرجع ومؤرخ حي لادب العصبة الاندلسية وتاريخه في المهجر الجنوبي .

ولا اراني بحاجة الى تقييم ادب نظير زيتون ، فقد حظي طوال عمره الادبي الطويل بشتى الاماديح والتقاريظ ، من ادباء كبار في العالم العربي والمهجر ، ومن هيئات رسمية مسؤولة ، ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر قصته الطويلة « من وراء القبر » وما نالت من استحسان النقاد ، وفي مقدمتهم الاديب الذواقة الاستاذ شاكر مصطفى الذي كتب مقدمتها دارسا محللا « ما قرأت قصتك هذه بعيني ، ولكن بقلبي وشرياني » (١) والشاعر المهجري جورج صيدح الذي دبج تعليقه الادبي عليها قائلا في نهايته « وبعد فان قلم نظير زيتون من اقوى الاقلام العربية وارفعها ادبا في المهاجر الاميركية واوطان الفاد ، عرفناه قوميا مناضلا ، ومنافحا عن الحريات باسلا ، ثوري الشرعة انساني النزعة ورأيناه في النقد كاتبا عميق الاغوار بعيد المضمار .. كما رأيناه في ادب المقالة ينير السبل ويغذي الافهام .. اما في قصته « من وراء القبر » فقد كشفنا فيه عن قاص بارع ، جمع خيال الشاعر الى فن المصور ، الى حماسة المناضل ، الى فكاهة القصاص ، في طرفة واحدة » (٢) وكاتب هذه السطور الذي نشر دراسة نقدية عن القصة غب صدورها بقليل ، في مجلة (النقاد) الدمشقية وحللها من الناحيتين المضمونية والشكلية تحليلا مشفوعا بالادلة والاستشهادات(٣).

ولايادي الاستاذ نظير زيتون البيضاء على الادب العربي ترجمة ووضعا في المهجر والوطن ، قدره المجمع العلمي العربي بدمشق ، فانتخبه بالاجماع عضوا فيه عام (١٩٦١) وكذلك فعل مجمع القاهرة اقرارا بفضله ونبوغه في ميدان اللغة والادب والاجتماع .

والحوار الذي سيطالعه القارىء في هذه الصفحات ، حوار قديم يرجع عهده الى اوائل عام ١٩٦٤ وقد تم في مقابلة جرت بيني وبين الاستاذ زيتون في بيته ، قمت بها اجمع المعلومات والمراجع والاصول التي كنت بحاجة اليها ، لاعداد مقال عن العصبة الاندلسية تاريخا وادبا ، وقد تفضل الاستاذ زيتون مشكورا ، وسلمني ـ للتعمق في الدراسة واستكمال ادوات البحث نسخة من مقابلة جامعة واسعة اجرتها معه الاديبة اللبنانية (سونيا عيد) في موضوع العصبة الاندلسية ، استعانت بها الفاضلة في اطروحتها عن ادب المهجر الجنوبي ، والعصبة الاندلسية بوجه خاص ، ولا انكر انها كانت ذات فائدة قيمة لبحثي ومنهجي في الدراسة .

ويهمني ان اذكر هنا ان هذا الحوار الادبي الوثائقي ، لم يتم في مقابلة واحدة وانما في عدة مقابلات اهمها تلك التي رد فيها الاستاذ زيتون على اسئلتي ردا كتابيا بخط يده ، احتفظ منه بنسخة واما بقية المقابلات فقد كانت تجري بشكل شفوي ، اسئلة يوجهها صاحب هذه السطور الى الاديب نظير زيتون ، فيجيب عليها بعمق وتفهم ، وبعد فترات من الصمت المفكر الامين ، لانه كان يعلم ان الهدف منها الاستفادة الادبية النقدية المؤزرة للدراسة التي كنت انوي القيام بها ، عن بعض ادباء العصبة الاندلسية ومنهم الاستاذ زيتون ، وحرصا مني على الامانة ، والدقة كنت اسجل اقواله وردوده الشفوية ، واعرضها عليه ، واحيانا كان يجيب اجوبة جريئة على بعض الاسئلة المحرجة .. فاساله : هل هذه الاجابات للنشر ، فيومىء بالايجاب ، او يشير الى انها للحفظ والسكوت ، ومع ذلك فسأشير في هوامش هذا الحوار الى ردود المقابلات الشفوية مع التاريخ .

وقد وجدت انه من الافضل نشر هذا الحوار الادبي الرصين عله يفيد دارسي الادب المهجري ، ويضيء لهم بعض الطرق المعتمة في منحى مؤلفاتهم وخاصة بعد ان التفت الباحثون في السنوات الاخيرة الى ادب المهجر الجنوبي وادباء العصبة الاندلسية بالذات فأولوهما عناية ملحوظة ، واهتماما ملموسا ، اسوة بادب المهجر الشمالي والرابطة القلمية . ومن زاوية اخرى ، فقد يكون في نشر هذا الحوار خير للادب واعتراف بفضل الاستاذ زيتون الذي امد كثيرا من النقاد والاساتذة الجامعيين او المرشحين لحمل دكتوراه في الادب المهجري في المنأى الجنوبي ، وفي مقدمة هؤلاء الذين استفادوا من هذا الحصاد المرع الاديبة اللبنانية سونيا عيد والاديبة الدمشقية عزيزة مريدن ، والدكتوران الحلبيان ، عبد الكريم الاشتر في كتابه الرائع عن « النثر المهجري » وعمر الدقاق في كتابه عن العصبة الاندلسية .

السؤال الاول : سنة الولادة واسم الاب والام ، وهل كان في عائلتك اديب قبلك ؟ ..

الاجابة : اسم الاب عيسى زيتون ، وكان صاحب انوال لحياكة الانسجة الحريرية التي يصدرها الى الخارج وبالاخص الى بيروت ومصر .

واسم الام نظيرة حداد ، وكان والدها عيسى حداد وجيها متادبا وسنة الولادة شباط عام ١٩٠٠ ميلادية . بحثت في عائلتي عن اديب تقدمني فما عثرت .

السؤال الثاني : لمحة عن حياتك هجرة واقامة ..

الاجابة : نزحت الى البرازيل في الرابعة عشرة من عمري ،

مع فريق من رفاق المدرسة دون ان اكون من الناحية الاقتصادية محتاجا الى هذه الهجرة . كانت اميركة آنئذ - عدوى محببة - تصيب الكبير والصغير .

وعكفت لدى وصولي الى سان باولو ، على التجارة الصغيرة كسائر المهاجرين وتقلبت في اطوار شتى ومراحل متعددة دامت اكثر من عشر سنوات ، وانتهت بأني رجل لا يصلح للتجارة التي غازلتها على غير وصل ، ثم انفرجت ازمتي بدخولي في الميدان الصحافي ، اذ عرض علي الاستاذ رشيد عطية رحمه الله - وهو علامة لغوي ومؤلف مشهور في بيروت - ان اتولى تحرير جريدته اليومية (فتى لبنان)وكانت اوسع الصحف العربية المهجرية انتشارا وفي طليعة الجرائد التي ناضلت في سبيل الحرية والاستقلال ومناوأة الاستعمار الفرنسي والانكليزي ، فصادف هذا العرض هوى في نفسي ، وتوليت تحرير الجريدة المذكورة من الباب الى المحراب عام ١٩٢٦ . كانت المهمة شاقة في بادىء الامر اذ يتحتم علي ان اطالع الصحف البرازيلية واترجم اهم الاحداث مع البرقيات العالمية ، الى كتابة اخبار الجالية ، بشكليها العام والخاص ، ثم انشاء الافتتاحية ، ونشر رواية متسلسلة ، مترجمة طبعا ، كما كنت اراجع الاعلانات التجارية واصححها ..ولكن هذه المصاعب لم تلبث ان هانت وانقلبت الى شعور عميق باللذة الروحية والادبية ، وكنت امارس الى جانب عملي الصحافي بعض الاعمال الاجتماعية والوطنية كالانخراط في سلك الجمعيات والقاء الخطب ، والاشتراك في اللجان وسواها ويكفي انني انتخبت خطيبا للنادي الحمصي مدى ١٥ سنة متوالية . وقد تسنى لي ان ازور بعض جمهوريات اميركة اللاتينية ، وفي الطليعة الارجنتين وتشيلي ، تلبية لدعوات عامة ، فلقيت من ضروب الحفاوة والاكرام فوق ما استحق ثم عدت الى الوطن بعد هجرة امتدت الى سبع وثلاثين سنة .

السؤال الثالث : من هم الادباء الذين تأثرت بهم قدامى ومحدثين من العرب ، ومثلهم من الكتاب الاميركيين ؟

الاجابة : كان زادي من العلم حين غادرت الوطن هزيلا ضئيلا ولكن حسي الادبي والفكري كان قويا فاقبلت على المطالعة .. وكنت اقرأ كل كتاب يقع في يدي فتأثرت في البدء بادباء العربية في الشمال وفي الطليعة الريحاني ، وبعدئذ نعيمة ثم تأثرت بادباء العربية في مصر وفي الطليعة العقاد ، وهكذا اطللت على آفاق ادبية وفكرية جديدة ، كانت نوافذها مغلقة في وجهي .

اما القدامى ، فقد اثروا في من الناحية البيانية والبلاغية ، اذكر منهم الجاحظ وابا حيان التوحيدي والاصفهاني والهمذاني وابن المقفع ، وكان للقرآن الكريم والحديث الشريف ونهج البلاغة اكبر الاثر في نفسي اسلوبا وفكرا اما الادب الغربي فكان لي نافذة جديدة ، اطل منها على افق جديد ولا اذكر انني تأثرت بكاتب بالذات ، بل كنت كمن - يجمع -اسلابافكرية - من هنا وهناك .

السؤال الرابع : ما هي اللغات التي تتقن ؟ ..

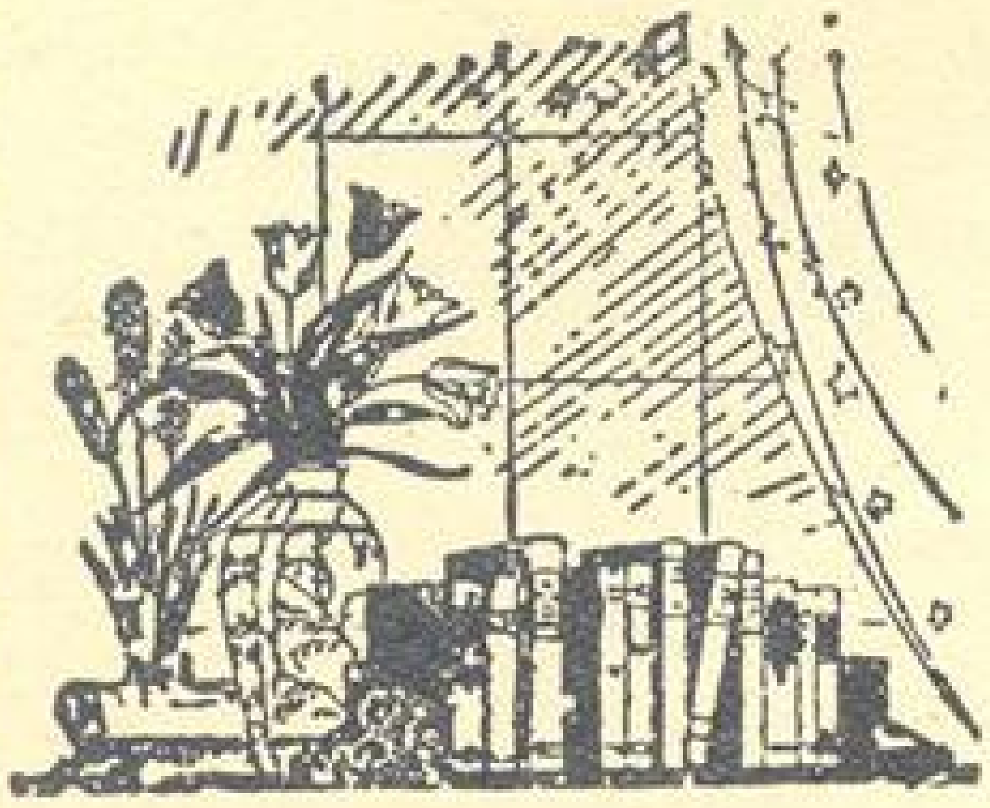
الاجابة : اتقن البرتغالية والاسبانية والانكليزية مع المام في الفرنسية اما البرتغالية والاسبانية فهما حبيبتان على قلب كل عربي لما بينهما من اواصر النسب والتاريخ ، فقد شاعت في هاتين اللغتين الوف من الالفاظ العربية الاصول ، فلا تقرأ باحداها سطرا الا وتعثر على لفظة عربية المصدر .

السؤال الخامس : متى بدأت عضويتك في المجمع العلمي بدمشق ومجمع القاهرة .

الاجابة : بدأت عضويتي في المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومجمع اللغة العربية في القاهرة في شباط (١٩٦١) وكان انتخابي بالاجماع كما اخبرني العلامة الكبير الامير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي بدمشق .

السؤال السادس : من يعجبك من كتاب وشعراء الرابطة القلمية

الاديب



⊙

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر

يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب - صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت - لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

ومن كتاب وشعراء العصبة الاندلسية ، ولماذا ؟ ..

الاجابة : يعجبني من كتاب وشعراء الرابطة القلمية جبران ونعيمة ونسيب عريضة وندرة حداد – الشاعر القديس – كما كانوا يلقبونه ، اما ايليا ابو ماضي فهو في الذروة لا يدانيه احد . لقد كانوا مجددين فكرة واسلوبا ، فكانت لهم الانطلاقات والاشراقات التى انبثقت من اعماق نفوسهم ، وخلجات قلوبهم وومضات ارواحهم ليتهمهم بعض المتزمتين بارتكاب اخطاء لغوية ، فهذا الاتهام لا يخفض من قدرهم وعلو شانهم فالادب العربي الحديث لا ينسى ابدا ما اسدوه اليه من اياد . اما العصبة الاندلسية فيعجبني من شعرائها المرحومون عقل الجر وحسني غراب وميشيل معلوف ، كما يعجبني نصر سمعان ، ولا اذكر الشاعر فرحات لانه انفصل عنها بعد عضوية قصيرة المدى . اما القمة فلا شك انه شفيق معلوف ، شقيق المرحوم فوزي ، ومن كتابها حبيب مسعود رئيس تحرير مجلتها العصبة ، وقد انحجبت منذ سنوات وجورج حسون معلوف .

وطابع ادباء العصبة الاندلسية عربي اصيل ، وتراهم من حيث اللغة والقواعد والصيغات محافظين او اكثر محافظة من ادباء كبار فى الوطن العربي .

السؤال السابع : ما هي الكتب او المقالات التي عالجت ادب العصبة الاندلسية ؟ ..

الاجابة : لا اذكر كتابا برأسه تحدث عن العصبة الاندلسية (٤) وكل ما قرأته في صددها لا يعدو شذرات واخبارا متفرقة ، والاديب الاردني عيسى الناعوري وزميله البدوي الملثم – يعقوب العودات – لفتات حول العصبة الاندلسية غير انه اذا اتيحت لي العودة الى البرازيل ، فسأسد هذا النقص في كتاب شامل .

السؤال الثامن : ما رأيك بنعيمة ككاتب ، لا كصديق وزميل ؟

الاجابة : لا شك ان نعيمة كاتب عملاق وقد كان ادبنا الحديث مفتقرا الى « خلق » اديب ، مرهف الحس عميق التفكير ، يستقي مداده من قلبه ، ويرش على الحرف ضياء من نور عينيه ، اقول ان ادبنا الحديث كان مفتقرا الى خلق اديب كنعيمة لولا ان الحظ ساقه الينا .. اما انه كاتب عبقري يرتفع ادبه الى المستوى العالمي ، فهذا امر لا جدال فيه ان لنعيمة فضلا كبيرا لا نستطيع ان نجحده ، ولكن لنعيمة احيانا مواقف غريبة تدعو الى التأمل ، فهو روحاني النزعة ، عالمه روحاني بحت .. وهو مغرق في روحانيته الصوفية ، وهذه الروحانية الخصبة تعني صفاء النفس والمحبة والتسامح ، واغتفار الذنوب ، والتجرد من البغضاء ، والتحرر من الانانية وفي كتابه الفريد (سبعون) باجزائه الثلاثة ، نجد امثلة شتى على خصب روحانيته وصفاء قلبه ومحبته وصفحه وتجرده ، غير اننا نلقى في الوقت نفسه اضدادها فهو شديد الزهو والاعتداد ، وهو عنيف اشد العنف في نقده وربه ، وقاس احيانا في احكامه ومقاييسه ، وان كان لا يرفع القزم الى مرتبة العملاق ، ولا يهبط بالعملاق الى مرتبة القزم ولكنني مع هذا احبه واحترمه ، واعترف بفضله وعبقريته .

السؤال التاسع : وما رأيك في صوفية نعيمة بخاصة ؟

الاجابة : ان نعيمة لم يكن صوفيا في يوم من الايام .. لان الصوفى لا يرد على الاخرين بهذا العنف الذي يستعمله نعيمة فـي ردوده ومناقشاته ، ولا ينحدر الى حضيض المادة .. (٥) .

السؤال العاشر : وتعفف نعيمة تجاه المرأة بماذا تفسره ؟ .. الا يعبر عن صوفية شفافة تعلو على الماديات ؟ ثم الا تجد فيه انسجاما بين المبدأ النظري والتطبيقي العملي لدى نعيمة في كل ما كتب عن المرأة ؟

الاجابة : ان نعيمة شهوي جسدي ، له تجاربه ومغامراته العاطفية .. وفي روسيا حاول ان يتزوج امرأة روسية لزوج احمق ، بعد ان تردد على منزلها امدا طويلا حتى كاد ان ينفضح امره (٦) .

السؤال الحادي عشر : وانت لماذا اضربت عن الزواج ، وما رأيك بالمرأة ؟!

الاجابة : اضربت عن الزواج ، خشية وقوعي فريسة بين ضرتين متناوئتين عنيدتين هما اليراعة والمرأة .. وانما الجمع بين هاتين الضرتين – في نظري يثير الشجون ويؤرق العيون .. فعلام اكون ذلك المفتون المغبون ؟ .. اما المرأة فهي في شرها وخيرها ، حالتها السلبية والايجابية والشيطانية والملائكية مصدر وحي والهام .. انها الينبوع الحي الذي نغترف منه طورا بحواسنا ، وتارة بافكارنا ،ومرة في يقظاتنا واخرى في احلامنا .. واجمل النساء ما كان حلما ، وان آثرها الاخرون لحما .. واروع الجمال في المرأة ، ذلك المخضب ، او ذلك الدفيء الحنون المحبب ..

السؤال الثاني عشر : ما هي منابع ثقافتك ؟ ..

الاجابة : منابع ثقافتي عربية ، ولها روافد غربية ، ولكنها ما جاوزت قط حدود ثقافتي العربية التي غلب طابعها ..

السؤال الثالث عشر : علل لي بشكل مقنع غلبة السجع على اسلوبك ؟ ..

الاجابة : السجع لون عربي اصيل عريق .. عرفه العرب في الجاهلية والاسلام وعصوره المتأخرة .. يكفي ان نذكر القرآن الكريم لتتجلى لنا روعة السجع ووقعه الاخاذ . والسجع – كما افهمه ... وازاوله – منزلة بين النثر والشعر والنثر العادي الدارج ، او اذا شئت سمه النثر الصحفي ، سهل المنال خفيف الاحمال ، واسع المجال ، ميسور الوصال ، يجري هينا على كل قلم .. والسجع الذى التزمه احيانا ، وفي موضوعات معينة ، يختلف كل الاختلاف عن سجع المقامات ، حيث لا تتعدى السجعة الواحدة فقرتين او ثلاثا بمعنى واحد تقريبا اما اسلوبي في السجع ، فيقفز في السجعة الواحدة الى عشر فقرات او اكثر ولكل فقرة انطلاقة ، ولكل فقرة اشراقة ، ولهذه حلاوة ، ولاخرى طلاوة ، في تناغم وايقاع . ولا اعرف كاتبا مارس هذا الاسلوب في سجعاته ، ولعله طراز فني جديد في ادبنا الحديث ، وان كان كثيرون يمقتون السجع ويعدونه من مخلفات العهد البائد ، لما فيه من حشو وتكلف يبعدانه عن الابداع فالسجع كما قلت ، منزلة بين النثر والشعر ، وانا لا استطيع ان ارتفع الى الشعر – لا النظم – لاعبر عن افكاري واحاسيس نفسي ، ولا ارضى لادبي ان اهبط به الى النثر العادي الدارج الذي يعالجه كل قلم بسهولة فكانت لي تجربتي في السجع المديد المتناغم الذي تؤلف فيه السجعة الواحدة مقطعا كبيرا ، وكأنه مقطع قصيدة واحدة . قلت انها تجربتي ، فسنرى ما يؤول اليه امر هذه التجربة .

السؤال الرابع عشر : ما هو افضل كتاب لك وتعتز به ؟ ..

الاجابة : الكتاب الذي اؤثره واعتز به لم اكتبه بعد .. ولا ادري هل يتاح لي ان اكتبه ام لا .. هذا امل اتركه في ذمة الايام .. اما ما نشرته من كتب في المهجر فلا يعدو كونه خطوطا على الرمل ، تعبث بها ولولة الرياح ، وقهقهة الغيوم .

السؤال الخامس عشر : اذا خيرت بين العودة الى البرازيل ، والاستقرار في وطنك فأيهما تختار ولماذا ؟ ..

الاجابة : اني اختار العودة الى البرازيل . في وطني مئات مثلي ، ومن هم اعلى شأنا مني اما في البرازيل ، فالامر بالعكس . لقد قضيت في الوطن اكثر من عشر سنوات ، كنت في غضونها مشلول

---

(١) « من وراء القبر » للاستاذ نظير زيتون – مطابع بن زيدون بدمشق ١٩٥٨ – ص ٧ (٢) المصدر نفسه صفحة ١٨ (٣) « النقاد » العدد (٤٥١) تشرين اول ١٩٥٨ .(٣)نوقشت منذ اشهر فيجامعة القاهرة رسالة لنيل الدكتوراه في الادب العربي ، عن العصبة الاندلسية للاستاذ عمر دقاق . (٤) في مقابلة شفوية لنظير زيتون في بيته في حمص فـي العشرين من تشرين الثاني من عام ١٩٦٤ (٥) في المقابلة نفسها .

الحركة في مثل الجدب والجفاف والارض القفر ، كنت شبه ضائع تائه الخطى ، بل شبه رجل جائع متهدم يلتهم لحمه ، يلتهم نفسه وينقض كيانه حجرا حجرا فلا انا انا ، ولا هذا السبيل سبيلي ،وكنت ارضى لنفسي ان تحترق تحت حرارة الشمس لاولد ولادة جديدة من رمادي ، كما تحترق العنقاء ، لتولد من رمادها نفسه في الاسطورة المشهورة . ولكن الاسطورة لا تتكرر .. فانا مغتربا انفع اذن لوطني مني مقيما .

السؤال السادس عشر : هل تأثر ادبك بالطابع البرازيلي ؟ ..

الاجابة : ادبي لم يتأثر قط بالطابع البرازيلي ولكن بين ادبنا العربي والادب البرازيلي الوان متشابهة من حيث النزعة الانسانية ، والمثل العليا ومصارعة الحياة ، والطموح الى الافضل ، وهي اواصر من النسب الادبي والفكري والانساني تجمع بيننا ، واذا كرم الاصل زكا الفرع ، فالبرازيليون هم في الاصل برتغال وبين العرب والبرتغال نسب احكمت وشائجه ثمانية قرون عربية اندلسية .

حمص ـ سورية ممدوح السكاف

•

نـاسك الفكر .. البير اديب

(بمناسبة عيد « الاديب » في يوبيلها الفضي)

تحية من اعماق القلب ازفها ، بمناسبة يوبيل الاديب الفضي ، الى الرجل الذي كرس عمره ليقود « الاديب » كل هذه المرحلة الطويلة من الزمن ببطولة المجاهد العنيد فيجهاده ، والفدائي المؤمن برسالته .

تحية الى « البستاني » الشريف الذي برى قوة ساعديه ،وسفح نور عينيه في تعهد حديقة « الاديب » ، لا لكي ينعم هو بفيئها وجناها، بل ليقدم الفيء الوارف للطالبين ، والعناقيد الشهية الناضجة للقاطفين . وكان اقصى مرامه ان يتزايد على الايام من يفيئون الى ظلال حديقته ، وان تتكاثر الايدي المتطاولة لقطف عناقيده . تلك هي متعة عمره ، وغاية كل تعبه وسهره . وفي هذا اقصى غاية الايثار ، والبذل والتضحية .

خمسة وعشرين عاما سفحها البير اديب ناسكا في محراب الفكر ـ في محراب « الاديب » : قوته كلها لها ، ونور عينيه في سبيل منح النور لعيون قرائها ، ودقات قلبه لمنحها الحياة والبقاء ، لكي تظل مشعلا وهاجا يشع بالنور في طريق نهضة الفكر العربي المعاصر . لم يمنح نفسه خلالها حظا من راحة ، ولا نصيبا من تسلية ، ولا فرصة لمتعة او لذة . راحته ، ومتعته ، وتسليته ، ولذته كانت كلهاان تعيش « الاديب » ، وان تستمر صلتها بالاقلام المنتجة ، والعقول المبدعة ، وبالقراء المتعاطفين مع نتاج الفكر وابداع العقول ، وان تكون «الاديب» وسيلة لاكتشاف المواهب العربية الدفينة وابرازها ، لكي تأخذ مكانها الصحيح في مسيرة الادب العربي المعاصر ، وسبيلا الى تسجيل تطورات النهضة الادبية في العالم العربي . وكم للاديب وصاحب «الاديب» من فضل في ابراز موهبة كانت خبيئة ، وتقديم كفاءة فكرية كانت تخوض في المجاهل المنعزلة ، حتى اصبح الكثير منها في القادة من نهضة الفكر العربي الحاضر .

ما ذهبت مرة لزيارة البير ـ منذ ان عرفته شخصيا في عام ١٩٤٩ ـ الا وجدته في منزله ، غارقا وراء طاولته يرسم التخطيطات لعدد من « الاديب » ، او يصحح تجارب الطباعة ، او يجمع الانباء الادبية من الصحف العديدة المكدسة على طاولته ، او يقرأ العديد من المواد الجديدة المتناثرة من حوله مما حمله اليه البريد من سائر اطراف العالم .

ولكم اشفقت عليه من الاجهاد والعمل المضني المتواصل ، ولكم نصحت له بان يرحم نفسه فيجعل سنة الاديب عشرة اعداد فقط ـ كما كانت سنة « الهلال » وسنة « المقتطف » من قبل ـ ويستريح شهرا او شهرين من كل عام ، فما استمع الى نصح ، ولا اقتنع بمشورة ، بل مضى يذيب قوته ، ويقدم من عافيتهالقربان على مذبح«الاديب» والوليمة السخية لقراء «الاديب» ولانصارها واصدقائها . قراء «الاديب» وانصارها واصدقاؤها كانوا دائما ـ وما يزالون ـ اعز على البير من عافيته ، ومن نور عينيه .

كنت اجلس معه في مكتبه ساعة او اكثر ، فترتج اعصابي كلها مع ارتجاج المنزل كلما مرت حافلةفي طريقها من امام العمارة الى فرن الشباك ، او في عودتها نحو ساحة الشهداء . وكان رأسي يدور من صخب السيارات واصواتها المثيرة وهي تتسابق في ذهابها وايابها المتواصلين كل ساعات النهار والليل ، ومن مطارق الحدادين في اسفل العمارة التي لا تنقطع سحابة النهار . وكنت اشفق على اعصاب البير من هذا الضجيج المتواصل . ولكنه تحمل كل هذا بصبر عجيب طوال خمسة وعشرين عاما في سبيل «الاديب» وفي سبيل قراء «الاديب» ..

واختفى الترام من شوارع بيروت اخيرا ، ولكن ضجيجالسيارات واصوات مطارق الحدادين لم تنقطع بعد ، فما تزال توالي ازعاجها كل يوم وكل ليلة ، والبير يتحمل كل ذلك بجلد جبار ، رغم ما وصل اليه بعد هذه المدة كلها من ضعف الصحة ، ومن ضعف البصر ، ورغم حاجته المستمرة الى العلاجات والادوية المختلفة : للشرايين ، والقلب، والبصر .

جلد عجيب لا مثيل له ، واصرار اعجب على الاستمرار في التضحية بكل شيء في سبيل الفكر والقلم الحر ، مما لا يمكن ان يكافئه اي تقدير او اي تكريم من اصدقاء الاديب ، ومن محبي البير اديب .

هذا رجل قدم لنهضة الفكر العربي المعاصر ما عجزت عنه حكومات . لقد تساقطت من حوله المجلات العديدة في كل قطر عربي ، ومنها ما كانت تسنده حكومات ، ومنها ما كانت تدعمه مؤسسات مالية . وصمد وحده في الميدان فدائيا على حساب صحته وبصره ، فنجح ـ دون ان تدعمه حكومة او تنصره مؤسسة مالية ـ حيث اخفقت الحكومات والمؤسسات المالية . وما كان نجاحه الا لانه آمن بمعنى التضحية في سبيل الاخرين ، ولم يكن قط ممن يتاجرون بالقلم والفكر ، ويحسبون حساب الربح المادي والخسارة في ما يعملون . الخسارة عنده هي الربح في حساب الاخرين ، والربح عنده هو الخسارة عندهم : لقد ربح الحب ، والاعجاب ، والاجلال على حساب خسارة الجهد والعافية . ومن هنا استحق البير اديب التكريم في يوبيل « الاديب » هذا ـ استحقه لجهاده المؤمن ، وتضحياته الكبيرة المتواصلة . ومع ذلك فان كلتكريم يظل دون ما يستحق .

ويقتضي الواجب ان اعترف في هذا المقام بفضل « الاديب » على شخصيا .

قبل ان اعرف طريقي الى مجلة «الاديب» عام ١٩٤٥ كنت اكتب في كثير من الصحف العربية : في فلسطين ، وشرقي الاردن ، ومصر . ولكنني في الواقع لم اعرف الطريق الى قرائي الحقيقيين في العالم العربي والمهاجر حتى بدأت صلتي بالاديب . هناك فقط عرفت طريقي الصحيح ، وعلى صفحات «الاديب» لقيت قرائي ولقوني ـ هناك فقط اتصلت دربي بدربهم منذ واحد وعشرين عاما ، وعنها تفرعت دروبي الاخرى لالتقي بقرائي حيثما كانوا .

هذه تحيتي «للاديب» ولصاحب «الاديب» في هذا اليوبيل الفضي. وليبارك الله لالبير اديب بجهوده وجهاده ، وليهبه المقدرة على مواصلة السير الى الغاية التي ترضيه وترضي احباءه .

جريدة « عمان المساء » ـ عمان عيسى الناعوري

اليانصيب الوطني اللبناني

مؤسسة حكومية مرصد ريعها لأعمال الاسعاف الاجتماعي

تعديلات هامة في جوائز اصداراتها

٢٠ اصدارا شعبيا	الجائزة الكبرى	٢٥٠٠٠ ل.
١٨ اصدارا شعبيا خاصا	الجائزة الكبرى	٤٠٠٠٠ ل.
٤ اصدارات سوبيستيك	الجائزة الكبرى	٥٠٠٠٠ ل.
٧ اصدارات عادية	الجائزة الكبرى	٦٠٠٠٠ ل.



ملكة جمال لبنان لعام ١٩٦٦
الآنسة يولا حرب



تدفع الجوائز في المديرية
معفاة من كافة الرسوم والضرائب